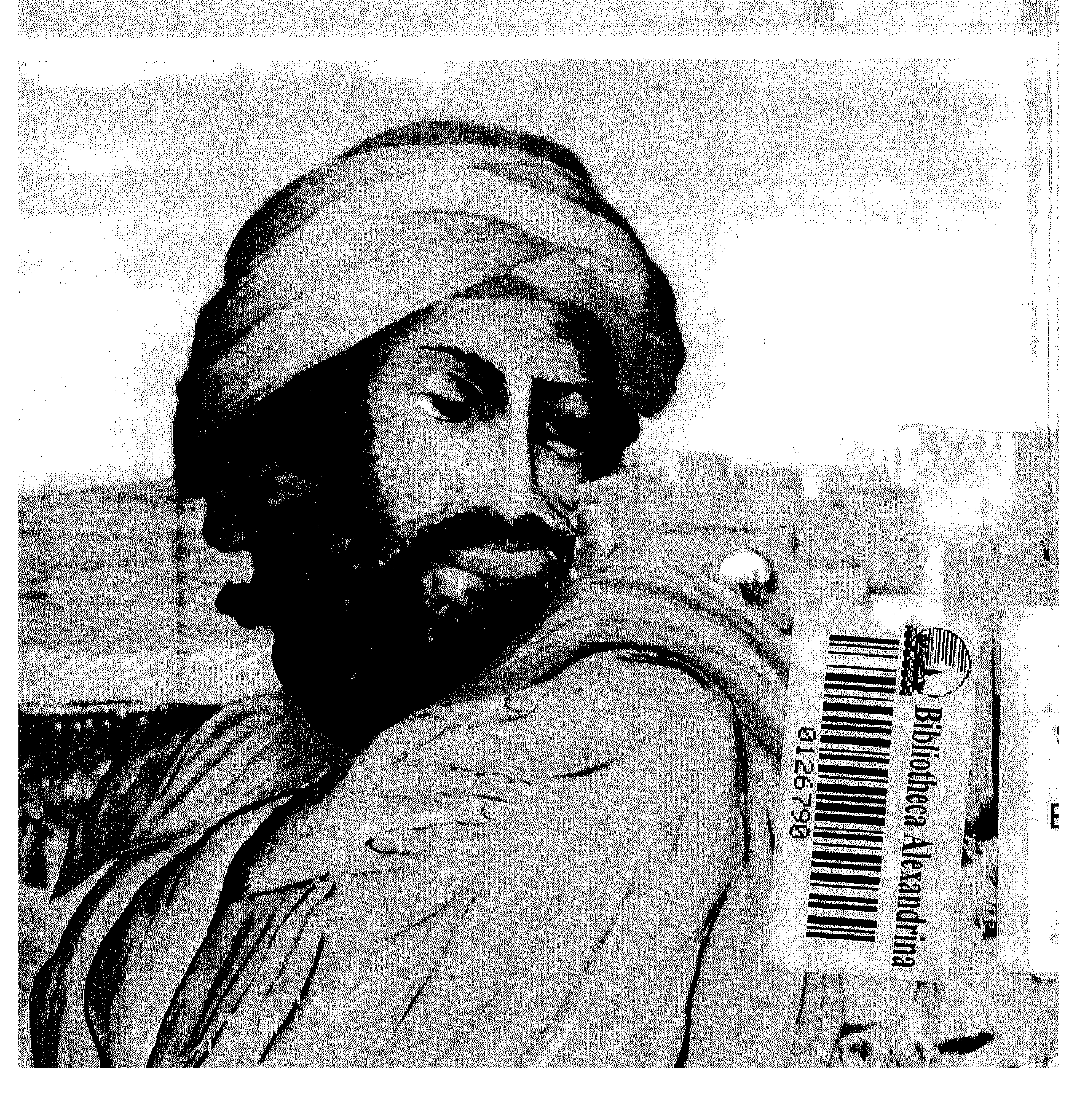
أعلام مبرّزون

إبن بطوطة



أعلام مبرزون

من الشرق والغرب

ابن بطوطة

٧٠٣ - ٧٧٠ هـ

١٣٠٤ - ١٣٦٩ م

دار الشرق العربي

بيروت - شارع سورية - بناية درويش

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة

لأعلام مبرزين من الشرق والغرب

١ - الإسكندر الأكبر
٢ - هنيبعل
٣ - أبو العلاء المعري
٤ - ابن بطوطة
٥ - ابن خلدون
٦ - كريستوف كولومبوس
٧ - وليم شكسبير
٨ - نابوليون بونابرت
٩ - ليون تولستوي
١٠ - المهاتما غاندي

كتبها وأشرف على اصدارها

الدكتور صالح الأشتر

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

تمهيد

قبل البداية
نشأة ابن بطوطة وتكوينه وشخصيته

— ١ —

في أَواخِرِ القرنِ السابعِ الهجريِّ كانتْ دولةُ المُوَحِّدينَ في المغربِ [illegible]بيِّ قد انْهارَتْ، وقامتْ على أَنْقاضِها عِدَّةُ دُوَيْلاتٍ، أقواها **دَوْلَةُ بَني مَرِيْنٍ في المَغْرِبِ الأَقصى**، وكانتْ مدينةُ فاس عاصمتهم، وفي ظِلِّ هذهِ الدولةِ، في مدينةِ **طَنْجَةَ**، الثَّغْرِ المَغْرِبيِّ الشماليِّ المُطِلِّ على مَضِيقِ جبلِ طارقٍ، وُلِدَ الرَّحَّالَةُ العظيمُ **ابنُ بَطُّوطَةَ، محمدُ بنُ عبدِ الله اللَّواتيُّ**، نِسْبةً إلى قَبيلة لَواتَةَ من البَرْبَرِ، في السابعَ عشرَ من رجبٍ عامَ ٧٠٣ هـ، ونشأَ في كَنَفِ أَسْرَةٍ عريقةٍ في الاشتغالِ بالعُلومِ الشرعيةِ الإِسلاميةِ وتَوَلِّي مَناصِبِ القَضاء بينَ الناس،

وتَرَعْرَعَ **محمدٌ في جَوٍّ منَ التقوى والصَّلاحِ**، فَدَرَسَ القُرآنَ الكريمَ والعلومَ الدينيةَ وتَفَقَّه فيها، كما تَعَلَّمَ الأدَبَ وفُنونَ الشِّعْرِ، والمصادرُ عَنْ فترةِ تحصيلِه العِلْمِيِّ لا تُزَوِّدُنا بما يَجعلُنا نَتَتَبَّعُ مراحلَ دراستِهِ وأَخْذِهِ عن شُيوخِهِ ومُعَلِّميهِ، ولكنّنا من خِلالِ أحاديثِهِ عن رِحْلاتِهِ التي طافَ بها في أَرْجَاء الدُّنْيا في عَصرِهِ، وبلغَ فيها مَشْرِقَ الأرضِ ومَغْرِبَها، نستطيعُ أن نستَشِفَّ صُورةً عن ثقافةِ ابنِ بَطُّوطَةَ وتكوينِهِ العلميِّ والأدبيِّ، وشخصيتِهِ التي كَوَّنَتْها تربيتُه خِلالَ نَشْأَتِهِ، مُنذُ نُعومةِ أظفارِه حتى بَلَغَ الثانيةَ والعشرينَ من عُمرِهِ عامَ ٧٢٥ هـ، وقد استوى شَابّاً في رَيْعانِ الصِّبا، قادِراً على تَحمُّلِ المَشَاقِّ، مُوطِّناً نفسَه على الارتحالِ في طلَبِ العلمِ والعِرْفانِ، مُتَشوِّقاً إلى القِيامِ بِفَريضةِ **الحجِّ إلى**

مَكَّةَ، بعزيمةٍ يَشْحَذُها الطُّموحُ والشوقُ إلى المعرفةِ وارتيادِ المَجْهُولِ!

كانت تربيةُ ابنِ بَطُّوطَةَ في كَنَفِ أسْرَتِهِ تَربيةً فاضلةً جعلتْ منهُ رجلاً تقِياً وَرِعاً مُحِباً لِلعلمِ والعُلَمَاء، والصالحينَ والأولياء، **ولعلَّ لِنَشْأتِه في مدينةِ طَنْجَةَ**، وهي تُطِلُّ على مينائِها الكبيرِ، العامرِ بالسُّفُنِ الكثيرةِ المُتَقَاطِرَةِ إليه من شَتَّى أرْجَاء العَالَمِ، **أثراً في تَعلُّق الفتى بالطَّوافِ في الأرضِ**، إذْ كانتْ طَنْجَةُ تَغُصُّ بالمَلاَّحينَ والرَّبابِنَةِ العائدينَ من رِحْلاتِهم البعيدةِ، وفي جُعْبَتِهم أقاصيصُ مُشَوِّقَةٌ عَمّا رَأوْهُ من عجائبِ الدُّنيا، يُثيرونَ بها دَهْشَةَ السامعينَ، ويَهيجُونَ في نُفوسِهِم الشوقَ إلى الارتحالِ والسَّفَرِ والتنقُّلِ في أرجاء الأرضِ.

وهَكذا يُتاحُ لنَا أن نَشْهَدَ انطلاقةَ ابنِ بَطُّوطَةَ في رِحْلَتِه **الطويلةِ التي يَقْضي فيها ثَمانيةً وعشرينَ عاماً**، يَذْرَعُ خِلالَها شَرْقَ الأرضِ وغَرْبَها، **ويَقْطعُ فيها مسافةً تُقَدَّرُ بِمائةٍ وعِشْرينَ ألفاً من الكيلومتراتِ**، وقد حاولَ في رِحْلَتِهِ ألاّ يَقْطَعَ طريقاً مرَّتَيْنِ، لِيَطَّلِعَ في كلِّ مرةٍ على جَديدٍ، ونجحَ في ذلكَ إلاّ فيما نَدَر، وفي نهايةِ المَطافِ الطويل، **أَمْلى الرّحالَةُ العظيمُ ذكرياتِهِ عنِ الرِّحْلَةِ، فكتَبَها عنهُ مُحمدُ بنُ جُزَيّ، كاتبُ السُلطانِ المرينيِّ أبي عِنانٍ**، في مدينةِ فاسٍ، بعدَ عودَتِهِ إليها، في كتاب سَمّاهُ (**تُحْفَةَ النُظّارِ في غَرائبِ الأَمْصارِ وعَجائبِ الأَسْفارِ**) وهو بحَقٍ تُحْفةٌ ثمينةٌ تَتَضَمَّنُ صُورةً نابضةً بالحياةِ عن الأَقْطارِ التي زارَها ابنُ بَطُّوطَةَ وَوَصَفَ ما شَاهَدَهُ فيها، وذكرَ انطباعاتِهِ عنها.

— ٢ —

ويُمكنُنا أنْ نُميِّزَ في كتابِ رحلةِ ابنِ بَطُّوطَةَ **ثلاثَ رِحْلاتٍ** أولاها **الرِّحلةُ الكبرى** التي بَدأَها من طَنْجَةَ عامَ ٧٢٥ هـ وطافَ خِلالَها في العالمِ الإسلاميِّ ووصلَ إلى بلادِ الرُّومِ والهندِ والصينِ، وعادَ إلى طَنْجَةَ عامَ ٧٥٠ هـ بعد رُبْعِ قَرْنٍ من التنَقُّلِ الدائبِ والتَّجْوالِ في الأرضِ؛ **والرِّحْلَتانِ الأُخْرَيانِ** قصيرتانِ: واحدة تَمَّتْ خِلالَ عامِ ٧٥١ هـ وزارَ فيها الأَندَلُسَ، وواحدة دامتْ نحو سنتينِ زارَ فيها السُّودانَ ووصلَ إلى تمبُكْتُو، وهي آخِرُ رِحْلاتِهِ التي انتهتْ عامَ ٧٥٤ هـ.

ثمانيةٌ وعشرونَ عاماً من التَّرْحَالِ، قَطَعَ خِلالَها نحواً من مائةٍ وعشرينَ ألفَ كيلومترٍ، ولا يَعرفُ تاريخُ الرِّحْلاتِ رَحَّالَةً استطاعَ أن يجتازَ مثلَ هذه المسافةِ قبلَ العُصورِ الحديثةِ، وبعدَ عَوْدَتِهِ إلى وَطَنِهِ استقرَّ في **فَاسٍ** عاصمةِ بَني مَرينٍ، في ظِلٍّ وارفٍ من عَطْفِ **السُّلطانِ أبي عِنانٍ** عليهِ، وهو الذي أعْجبَ بأحاديثِهِ عَنْ أَسْفارِهِ، وأمَرَ كاتِبَهُ (**ابْنَ جُزَيٍّ**) بأَنْ يكتُبَ تلكَ الأحاديثَ، فأَمْلاها ابنُ بَطُّوطَةَ عليهِ، حتى فَرَغَ من تسجيلها عامَ ٧٥٧ هـ وبقي ابنُ بَطُّوطَةَ في حاشيةِ السُّلطانِ المَرينيِّ إلى وفاتِهِ عامَ ٧٧٠ هـ في فاسٍ، مُحاطاً بالتقديرِ والإجلالِ، غيرَ أنَّ عَدَداً من حُسَّادِهِ ومُعانِديهِ، مِمَّنْ نَفَسُوا عليهِ منزلتَه لَدَى السُّلطانِ، كانوا يَتَّهِمُونَهُ بالكَذِبِ والافتِراء في رواياتِه لِما شَاهَدَ

فِي رِحْلَتِهِ من غَرائِبَ وعَجائبَ، وقد أشارَ مُعاصِرُهُ ابنُ خَلْدُونٍ إلى ذلك فيما كَتَبَ عنه في **مُقَدِّمتهِ** المَشهورة:

« وَرَدَ بالمَغْرِبِ لِعَهدِ السُّلطان أبي عِنَانٍ من مُلوكِ بني مَرينٍ رَجُلٌ مِن مَشْيَخَةِ (شُيوخِ) طَنْجَةَ يُعْرَفُ بابْنِ بَطُّوطَةَ، كان رحلَ منذُ عشرينَ سنة قبلَها إلى المشرقِ، وتقلَّبَ في بلادِ العراقِ واليمنِ والهندِ، ودخلَ مدينة دِهْلي (دلْهي اليومَ) حاضِرةَ مُلْكِ الهندِ، وهو السلطانُ محمدُ شاه، وكانَ له مِنهُ مَكان، واستعملَهُ في خِطَّةِ القضاء بمذهبِ المالكيَّةِ في عملِهِ، ثم انقلبَ إلى المَغْرِبِ واتَّصَلَ بالسلطانِ أبي عِنَانٍ، وكانَ يُحدِّثُ عن شأنِ رِحْلَتِهِ وما رأى من العَجائبِ بممالكِ الأرضِ، وأكثرُ ما كانَ يُحَدِّث عَنْ دَوْلَةِ صاحبِ الهندِ، ويأتي من

أحوالِهِ بما يَتَعجَّبُ منه السامِعونَ... **فتَنَاجَى الناسُ بتكْذِيبهِ!»**.

والحقُّ أنَّ ابنَ خَلدونٍ لم يكُنْ أَوَّلَ مَنْ شَكَّ في صِحَّةِ بعضِ أحاديثِ ابنِ بَطُّوطَةَ في رِحْلَتِهِ، فكاتبُ الرحلةِ محمدُ بنُ جُزَيْ يُبدي شَكَّهُ في بعضِ ما كانَ الرَّحالةُ الكبيرُ يُملي عليهِ من قِصصٍ وحكاياتٍ وأخبارٍ، وهو يُشيرُ إلى ذلكَ إشارة خاطفةً في المُقَدِّمةِ، إذْ يقولُ: «وأوردتُ جميعَ ما أوردَهُ منَ الحِكاياتِ والأخبارِ، ولم أَتَعرَّضْ لِبَحثٍ عن حقيقةِ ذلكَ ولا اختبارٍ!».

وقد عُنِيَ المُستشرقون بالمُقارنةِ بين أقوالِ ابنِ بَطُّوطَةَ وأقوالِ غيرِهِ من الرَّحالين في عَصْرِه، أو في عَصْرٍ يَقْرُبُ من عَصْرِهِ، فبدا لهم صِدْقُهُ، والحقُّ أنَّ **ابنَ بَطُّوطَةَ لمْ يَتعمَّدِ الكذبَ فيما رَواهُ، وكان**

يَجتهِدُ في تَحرِّي الحقيقةِ، أما الحكاياتُ التي نَقَلَه أحياناً، والتي هي من قَبيلِ الخُرافاتِ، فإنها تَنِمُّ عن سَذاجةٍ في الطبعِ عندَ ابنِ بَطُّوطَةَ، على الرغمِ من دِقَّةِ مُلاحظتِه ونَفَاذِ بَصَرِهِ وحُسْنِ فهمِهِ لِلطَّبائعِ الإنسانيةِ، وينبغي أن نُدْرِكَ أَنَّ **الرجُلَ هو ابنُ بيئتِه وعصرِه** في جُلِّ آرائِهِ وعقائِدِه، وعلينا أن نُنْصِفَ الرَّحّالةَ العظيمَ فنَنظرَ إليهِ بمقياسِ عَصْرِهِ، ومِنَ الظُّلْمِ دون شَكٍّ أَنْ نُطالِبَ ابنَ بَطُّوطَةَ بأنْ يكونَ مثلَ رَحَّالي عصرِنا من العُلماءِ والمُفكرينَ الذين يَجُوبونَ البلادَ لتقديمِ دراسةٍ علميةٍ صحيحةٍ قائمةٍ على العلمِ وصِدْقِ الاستنباطِ ونَتيجةِ الاختبارِ، عن سُلطانِ تلكَ البلادِ وأحوالِهم وحضارَتِهم، وحسبُنا أنْ نَنقُلَ شهادةَ الرحالةِ الأوربِّي الشهيرِ والعالِمِ الكبيرِ **سِتَزِنْ** بفضلِ ابنِ بطُّوطَةَ حينَ يَقولُ:

«أيُّ سَائحٍ أَوْربيٍّ يُمكِنُهُ أَنْ يفتخرَ بأنَّهُ قَضَىٰ من الزمنِ ما قَضاهُ ابنُ بَطُّوطَةَ في البحثِ لِكَشْفِ المَجْهُولِ من أحوالِ هذا العَددِ الكثيرِ من البُلدانِ السحيقةِ، وتَحمَّلَ من مَشَاقِّ الأسفارِ ما تَحمَّلَهُ بصبرٍ وثَبَاتٍ وَشَجاعةٍ؟ بل أَيَّةُ أمَّةٍ أوربيةٍ كانَ يُمْكِنُها منذُ خَمْسَةِ قُرونٍ أَنْ تَجِدَ من أبنائِها من يَجُوبُ البلادَ الأجنبيةَ، وهو يملكُ من الاستقلالِ بالحُكمِ والقُدرةِ على المُلاحظةِ والدِقَّةِ في الوَصْفِ، ما كانَ يملكُهُ هذا الرَّحالةُ العظيمُ! **إنَّ ما جاء به من المَعلوماتِ الصحيحةِ عن الجِهاتِ المَجْهُولةِ من إفريقيةَ لا يَقِلُّ في فائدتِه عن مَعلوماتِ لُيُونَ الافريقيِّ!**».

هَذا حُكْمُ الإِنْصافِ في (ابن بَطُّوطَةَ) **الرحَّالةِ الأمينِ**، كما يُسَمِّيهِ المستشرقُ **دُوزي**، إعجاباً

برحلتِهِ، وتقديراً لأمَانتِهِ وصدْقِهِ فيها، وإنَّ شخصيتَهُ لتَبْدو مِنْ خِلالِ رحلتِهِ كلِّها مُحبَّبةً. وهي تُمثِّلُه إنساناً يَقِظ الوجدانِ رقيقَ العاطفةِ شديدَ الحساسيةِ والتأثُرِ، حيَّ الضميرِ، شديدَ الوَرَعِ والتَّقْوى، مُحِبّاً لِوالِدَيْهِ، مُعَظِّماً لِلأَتقِياء والصَّالحينَ، حريصاً على زيَارةِ قُبورِهم لِلتبرُّكِ بهم، وعلى روايةِ ما يُنْسَبُ إليهم من كَراماتٍ وأعمالِ برّ وإحْسَان! وقد **تَدْفَعُه سَذاجَةٌ في طبْعِهِ إلى رِوايَةِ أشياء يَرفُضُها العقلُ والتمحيصُ**، ولكنَّ الرجلَ ــ كما قدّمنا ــ **هو ابنُ عَصْرِهِ وبيئَتِهِ وعقائِدِها**، وحسبُه أَنَّهُ كانَ يَتَحرَّى الحقيقةَ جُهدَه، ولم يتعمَّدْ أنْ يكذِبَ أو أنْ يُحاولَ الغشَّ في أقوالِهِ، والرحلةُ كلُّها تَشِفُّ عن أخلاقِ الرجلِ القويمةِ وصِفاتِهِ الطيِّبةِ، من صَفاء نَفْسٍ وطَهارَة قلبٍ ونَقَاء سَريره. كما تنمُّ عن شَخصيَّتِه

المُثَقَّفَةِ: فقد كانَ ابن بَطُّوطَةَ عالِماً فقيهاً أديباً، مُؤَهَّلاً لِتَوَلِّي القَضاء والحُكْمِ بينَ الناسِ، وقد دُعِيَ لذلك حينَ نَصَّبهُ رَكْبُ الحُجّاجِ من تُونُسَ قاضياً بينَهم، في المرحلةِ الأولى من رِحْلَتِهِ، وهو ما يزالُ شاباً في الثانيةِ والعشرينَ، اعترافاً منهم بعِلْمِهِ وَوَرَعِهِ وتَفَقُّهِهِ في الدينِ ونُضْجِهِ ورُشْدِهِ.

ـ ٣ ـ

ي هذا الكتاب نُحاولُ أَنْ نُقَدِّمَ **عَرْضاً مُوجَزاً لِرِحْلَةِ ابنِ بَطُّوطَةَ**، نُرافِقُ خِلالَهُ رحَّالتَنا المغربيَّ الخالدَ منذُ خروجِهِ من طَنجَةَ عامَ ٧٢٥، إلى عودتِهِ الأخيرةِ إلى وَطَنِهِ عامَ ٧٥٤ هـ بعد ثمانيةٍ وعشرينَ عاماً من التَّجْوالِ والرِّحلَةِ والتَنَقُّلِ، في أَقْطارِ الأرضِ؛ ولكَيْ تَسْهُلَ علينا مُتابَعَةُ جَوَّابِ الآفاق خلالَ هذهِ السنينَ الطويلةِ، نَقْسِمُ **العَرْضَ إلى مَراحِلَ مُتَتابِعَةٍ**، نُلاحِقُ خِلالَها مسيرةَ ابنِ بَطُّوطَةَ مِنَ البدايةِ إلى النهايةِ، نَطوي معَه المَسافاتِ، ونشْهَدُ أطرفَ المشاهدِ، وكلُّ رَجَائنا أَنْ يَجِدَ القارىء فيما نُقَدِّمُهُ مِنْ مراحل الرِّحْلَةِ الفائدةَ والمُتعةَ

والتسليةَ، وأن يُدركَ في نهايةِ المطَافِ عِظمَ الجُهودِ والتضحياتِ التي قَدّمها الرَّحالةُ العظيمُ في القرنِ الهجري الثامنِ، لِيكتَشِفَ المَجْهُولَ، في عَصْرٍ كانتِ المواصلاتُ فيه لا تَعْرِفُ البُخارَ ولا الكهرباء ولا السَيَّارةَ ولا الطيَّارَةَ!

أما مراحلُ الرَّحْلةَ فهي **تُواكِبُ خَطَّ سيرِ الرحَّالةِ في تَنَقُّلاتِهِ** وأسفارِهِ: المغربُ العربيُّ ــ الديارُ المِصْريَّةُ ــ ديارُ الشام ــ الحجازُ والديارُ المقدسةُ ــ العِراقُ وفارسُ ــ الجزيرةُ العربيةُ ــ بلادُ الرُّوم وما جاوَرَها ــ الهندُ وجُزُرُ الهِنْدِ الشرقيةُ ــ الصِّينُ ــ العَوْدَةُ إلى المغربِ والأنْدَلُسِ ــ السُّودانُ.

وقبلَ أَنْ نختمَ هذا التمهيدَ، ونَنْطلِقَ معَ الرَحَّالةِ المغربيِّ الخالدِ في مراحلِ رحلتِهِ الطويلةِ لا بُدَّ لنا من

مُلاحظةٍ أخيرة، نتحدَّثُ فيها عن **تَفَوُّقِ المغاربةِ المسلمينَ في فَنِّ الرحْلاتِ، وتَبْرِيزِهم في هذا النوعِ الأدبيِّ على المشارقةِ**، وإكثارهم من التأليفِ فيه، والحقُّ أَنَّ هُنالِك أسباباً جَعَلَتِ المغاربةَ يُكثرونَ من تأليفِ الرَّحْلاتِ في كُلِّ العُصورِ، وأهمُّها الرحله إلى المَشْرق **لتَأديةِ الفريضةِ، أو لِطلَبِ العِلْمِ**، أو الرِّحلةُ **للسياحةِ عامَّةً، أو لِلسَّفارةِ عن المغربِ** لَدَى الدولِ الأُخرَى، أو **مرافقةِ رجالِ الدولةِ في أسفارهم** لتسجيلِ ما يَتمُّ خِلاَلها، وفي رحلةِ ابنِ بَطُّوطَـةَ نجدُ بعضَ تلكَ العواملِ التي دَفَعَتْ به إلى مُغادَرَةِ المغربِ لِيُصْبِحَ واحداً من كِبارِ الرَّحَالةِ العَرَبِ المُبَرِّزينَ الخالدينَ.

المرحلة الأولى

بداية المطاف في المغرب العربي

غادرَ ابنُ بَطُّوطَةَ مَسْقَطَ رأسِهِ **طَنْجَةَ** يومَ الخميسِ، الثانيَ من رجبٍ عامَ ٧٢٥هـ قاصِداً الحجَّ إلى بيتِ اللهِ الحرامِ وزيارةَ قبرِ رَسُولِهِ الكريمِ، وكانَ والداه على قَيْدِ الحياةِ، فودَّعَهُما وسافرَ مُنْفَرِداً، وهو يُعاني الألَمَ لِفِراقِهِما، إلى أنْ وَصَلَ إلى مدينةِ **(تِلِمْسانَ)**، فأقامَ فيها ثلاثةَ أيامٍ، ثم تابعَ سفرهَ إلى مدينةِ **(مِلْيانَةَ)**، فوصلَ إليها في مَوْسِمِ الحَرِّ، وبعدَ عشرةِ أيامٍ من إقامتِه فيها انْضَمَّ إلى رفقةٍ من تُجّارِ تُونُسَ، فوَصَلَ معَهم إلى **مدينةِ الجزائرِ** حيثُ أقامُوا

بضاحيةٍ منها أياماً، قبلَ أنْ يُتابعَ الرَّكْبُ سيرَهُ إلى مدينةِ (بِجايَةَ)، وفي هذه المدينةِ أصيبَ ابنُ بَطُّوطَةَ بالحُمَّى، فأشارَ عليهِ بعضُ رفاقِهِ بالإقامةِ فيها حتى يُشْفَى مِمّا ألمَّ به، فأبى وصَمَّمَ على مُواصلةِ رِحْلَتِهِ، مُفضِّلاً أن يَلْقى رَبَّه — إذا انتهى أجلُه — وهو في طريقِهِ لِتأدِيَةِ فريضةِ الحجِّ، غيرَ أنه تَخَفَّفَ من ثِقَلِ مَتاعِهِ، وباعَ دابَّتَهُ، وكانَ ذلكَ بنصيحةٍ من أَحَدِ رفاقِهِ، على أَنْ يُعيرَهُ دابةً من عِنْدِهِ، لِيُصْبحَ سَيرُهُ خَفيفاً، ولا يَشْغَلَ نفسَهِ بمتاعِهِ وزادِهِ، فالركبُ يُجِدُّ في سَيْرِهِ، خَوْفاً من غَارَةِ البُداةِ على القوافلِ في ذلكَ الطريقِ؛ وقد اشتدَّتْ وَطْأَةُ الحُمّى على ابن بَطُّوطَةَ، فكانَ لا يستطيعُ التماسُكَ فوقَ الدّابَةِ، فَيَشُدُّ نَفْسَهُ بِعِمامَتِهِ فوقَ السَّرْجِ، لِكيلا يَسْقُطَ من الضَّعْفِ، وكذلكَ قَطَعَ مدينة (قُسَنْطينَةَ) ومدينةَ

(بُونَةَ)، والخوفُ من مُداهمةِ قُطّاعِ الطّريقِ يَزيدُ في كَرْبِهِ ومَرَضِهِ حتى وَصَلَ إلى **مدينةِ (تُونُسَ)**، وفي ظاهرِها كانَ عددٌ من أهلِيها يَنتظرونَ قُدومَ بعضِ أصحابِهم في الرَّكْبِ، أمّا ابنُ بَطّوطةَ فلم يُقْبِلُ عليهِ أحَدٌ، فأحسَّ بالوَحْشَةِ والحُزْنِ، وآشتَبدَّ به الحنينُ إلى أهلِهِ فَدَمِعَتْ عيناهُ، ورآه بعضُ المُستقبلينَ فأشْفَقَ عليهِ، وراحَ يَبذُلُ جُهدَه في مُؤانَسَتِهِ حتى سُرِّيَ عنهُ.

وأقامَ ابنُ بَطّوطةَ في مدينةِ تُونُسَ مُدّة شَهِدَ فيها احتفالَ الناسِ بعيدِ الفِطْرِ، ثُمَّ انتظرَ حتى **تَمَّ إعْدادُ رَكْبِ الحُجّاجِ القَاصدينَ إلى الحِجازِ**، فانضَمَّ إليهم، وعَرَفَ هؤلاء الحُجّاجُ فَضْلَ ابنِ بَطّوطةَ، **فَنَصَّبُوهُ قاضِياً** عليهم، لِعِلْمِهِ وتَفَقُّهِهِ في الدينِ، فأنِسَتْ نفسُه بذلك، وزايَلَتْهُ وَحْشَتُهُ؛ ثم

غادرَ الرَّكْبُ مدينةَ (تُونُسَ) سالِكاً الطريقَ الساحليَّ، فاجتازَ (سُوسَةَ) و(صَفَاقُسَ) حتى وصلَ إلى (طرابُلُسَ) وكانَ في الرَّكْبِ عَدَدٌ كبيرٌ من الفُرسانِ والرُّماةِ، فلم يَجْرُؤْ أَحَدٌ من البُداةِ على اعتراضِ طريقِهم.

وفي طرابُلُسَ تَزَوَّجَ ابنُ بَطُّوطَةَ من ابنةِ تُونُسيٍّ من حُجّاجِ الرَّكْبِ، ولم يَشَأْ انتظارَ تَحَرُّكِ الرَّكْبِ، إذْ آثَرَ المُسافرون فيه التريُّثَ في طَرَابُلُسَ، خَوْفاً من البَرْدِ والمَطَرِ، فانطلَقَ ابنُ بَطُّوطَةَ، ومَعَهُ زَوْجَتهُ وجَماعةٌ من قَبيلةِ المَصامدَةِ، وتجاوَزُوا في طريقِهم (مِسْلاتَةَ) و(مِسْراتَةَ) و(قُصورَ سُرْتَ) وتَمكَّنُوا من الإفْلات من قبائلِ البُداةِ التي كادَتْ تُوقِعُ بهم، حتى وَصَلُوا إلى (قُبَّةِ سَلاّمٍ)، حيثُ أدرَكَهم فيها الرَّكْبُ المُتخلِّفُ في طَرَابُلُسَ؛ ووقَعَ

شِجارٌ بينَ ابنِ بَطّوطَةَ ووالدِ زَوْجَتِهِ، فَطَلَّقَها، وتَزوَّجَ أُخْرى، هيَ ابنةُ أَحَدِ الفاسيِّينَ من طَلَبَةِ العِلْمِ، واحتِفالاً بِفَرْحَةِ العُرْسِ أَوْلَمَ ابنُ بَطّوطَةَ لِلرَّكْبِ كُلِّهِ وَليمةً كُبرىٰ، حيثُ قضَى المُسافرونَ يَوماً كاملاً في مَرَحٍ وهَنَاءةٍ وسُرورٍ قَبْلَ أنْ يُتابِعوا مَسيرتَهم نحوَ الاسكندرية.

ويُحدثُنا ابنُ بطّوطَةَ أَنّهُ غادَرَ طَرابُلُسَ في أواخرِ شهرِ المُحَّرمِ من عامِ ٧٢٦ﻫ، ووصلَ مع الركبِ إلى **الاسكندريةِ** في أَوَّل جُمادىٰ الأُولى، بعدَ ثلاثةِ أشهرٍ من السفرِ، وقد مَرَّ عليهِ **منذُ خُروجِهِ من طَنْجَةَ عَشْرَةَ أَشهُرٍ كاملةٍ**، قضاها في اجتيازِ المغربِ العربيِّ إلى الديارِ المِصْرِيَّةِ.

المرحلة الثانية

ابنُ بَطّوطةَ في الديارِ المِصْرِيَّةِ

أُعْجِبُ ابنُ بَطُّوطَةَ بِكُلِّ ما شاهَدَهُ في الديارِ المِصْرِيَّةِ، وقد نالَتِ **الاسكندريةُ** قِسْطاً وافِراً من إعْجابِهِ، فتحدَّثَ عنْ أبوابِها ومَرْسَاها العظيمِ الذي لم يَشْهَدْ مثلَهُ في موانىءِ الدُّنيا التي رآها، باستثناء بعض المَراسي في الهِنْدِ والصِّينِ وغَيْرِهما، وأَعْجَبَهُ من جُملةِ الغرائبِ التي رآها في الاسكندريةِ **عَمُودُ السَّواري**، الهائلُ المنحوتُ من الرُّخامِ، في قِطْعَةٍ واحدةٍ، يُطاوِلُ في السُّمُوِّ والارتفاعِ أعلى أشجارِ غابةِ النخيلِ التي نُصِبَ العَمُودُ على قاعدةٍ حجريةٍ فيها.

ومن غَرائبِ ما شَاهَدَ في الاسكندريةِ عِمَامةُ قاضِيها عمادِ الدين الكِنْديِّ «فقد كانَ يَعْتَمُّ بعِمامةٍ خَرَقَتِ المُعْتادَ لِلْعَمائمِ ـــ كما يَقُولُ ـــ ولَمْ أَرَ في مَشارِقِ الأَرْضِ ومغارِبِها عِمامةً أَعظمَ منها، رأيتُه يَوْماً قاعِداً في صَدْرِ مِحْرابٍ، **وقد كادَتْ عِمامَتُهُ أَنْ تَمْلأَ المِحْرابَ!!».**

وكانَ ابنُ بَطُّوطَـةَ خِلالَ مُقامِهِ في الاسكندريةِ حريصاً على مُقابلةِ العُلماءِ وكُلّ مَنْ يَسْمَعُ أخبارَ كَراماتِهم من الأَوْلياءِ والصّالحينَ، وقد لَقِيَ في جُمْلَةِ مَنْ لَقِيَ منهم واحِداً **من كِبارِ الزُّهّادِ العُلماءِ واسمُه بُرهانُ الدينِ الأعرجُ**، وأقامَ في ضِيافَتِه ثلاثةَ أيامٍ، وكانَ لهذا العالِمِ الزاهدِ الوَرِعِ الخَاشِعِ ـــ كما يَصِفُهُ ـــ أَثَرٌ بالغٌ في حَياةِ ابنِ بَطُّوطَـةَ، إذ استشفَّ من رُوحِ الشابِّ المغربيِّ حُبَّه لِلتجوالِ في

الأَرضِ، وارتيـاد الآفاقِ البعيدةِ، والسياحةِ في البلادِ، **فَتَنَبَّأَ له بزيارةِ الهِنْدِ والصينِ**، ولنُصْغِ إلى ابنِ بَطُّوطةَ وهو يُحدِّثُنا عن ذلك بقَوْله:

«دخلتُ عليهِ يوماً فقالَ لي: أراكَ تُحبُّ السِّياحةَ والجَولاَنَ في البلادِ؟ فقلتُ له: نعم إني أحبُّ ذلكَ، ولم يكُنْ حينئذٍ خَطَـرَ بخاطري التَوَغُّلُ في البلادِ القاصيةِ من الهندِ والصينِ، فقال: لا بُدَّ لكَ ــ إنْ شاء اللهُ ــ من زيارةِ أخي فَريدِ الدينِ بالهندِ، وأخي رُكْنِ الدينِ زكَريّاء بالسِّنْدِ، وأخي بُرهانِ الدين بالصِّينِ، فإذا بَلَغتَهم فأَبْلِغْهُم مني السَّلامَ! فعجبتُ من قَوْلِهِ، وأُلْقِيَ في رُوْعِي التوَجُّهَ إلى تلكَ البلادِ» ومن حديثِ ابن بَطُّوطـةَ نعلَمُ أنَّ الرحّالةَ العظيمَ لم يكُنْ قبلَ لِقائهِ بالزاهِدِ المذكورِ في الاسكندرية يُفكِّرُ في الإيغَالِ في رِحْلاتِهِ إلى أقاصي

بلادِ الهِنْدِ والسِّنْدِ والصِّينِ، فجاءتْ **كلماتُ الزّاهدِ المِصْريِّ تَرْسُمُ له الآفَاقَ البَعيدة**، وتَحفِزُهُ على ارْتيادِها، وتُبَشِّرُهُ بالوُصولِ يَوْماً إليها، وتُنَمِّي غَريزة حُبِّ الأَسْفَار في أعماقِ نَفْسِهِ، وهكذا يكونُ **لِمِصْرَ فَضْلٌ في تَنْمِيَةِ مَلَكَةِ الارتحالِ** لِزيارةِ أقاصي المَعْمُورَةِ **في نَفْسِ ابنِ بَطُّوطَةَ**، وهو نَفْسُه يُحدِّثُنا عن رَجُلٍ آخَرَ مِنَ المِصْرِيِّين الصالحين، سمعَ عنه وهو في الاسكندريةِ أنّهُ من كِبارِ الأَوْلياءِ المُنقَطِعِينَ لِلعبادةِ في بعضِ الزَّوايا، واسمُه **الشيخُ أبو عبدِ اللهِ المُرْشِديِّ**، فرَحَلَ إلى مُنْيَةِ بني مُرْشِدٍ لِكيْ يَلْقاهُ، وقَضى عندَهُ ليلةً رأى فيها حُلماً عَجيباً فَسّرَهُ الشيخُ له بأنّهُ سوفَ يَحُجُّ ويزورُ قبرَ النبيِّ، ثم يَتَجوَّلُ في بلادِ اليمنِ والعِراقِ وبلادِ التُركِ وبلادِ الهِندِ، ويَبقى بها مُدّةً طويلةً! ولقد غادَرَ ابنُ بَطُّوطَةَ

مُنْيَةَ بني مُرْشِدٍ وقد استَقَرَّ في نَفْسِهِ الإيمانُ بالوُصولِ إلى البلاد التي ذكَرَها الشيخُ لهُ، والتي أصبحَ يَتَشَوَّقُ إلى شَدِّ الرِّحالِ إليها.

وانتهزَ ابنُ بَطُّوطَةَ فَرْصَةَ وُجودِهِ في الديارِ المِصريةِ لِيَطُوفَ في أرضِ مِصْرَ ويزورَ أمَّهاتِ المُدُنِ فيها مثلِ **(دَمَنْهُورَ)** «وهي مدينةٌ كبيرة، جِبايَتُها كثيرة، ومحاسِنُها أثيرة» ومثلِ **(دِمْيَاط)** التي أعجبتْهُ لِكَثْرَةِ أشجارِ المَوْزِ فيها، وقد أشارَ إلى أنَّ الخُروجَ من المدينةِ يكونُ بِتَصْريحٍ من الوالي، فمَنْ كانَ من الأعْيانِ أوْ من ذَوي المَنْزِلَةِ الرفيعةِ مُنِحَ تَصْريحاً خطِّياً يُبْرِزُهُ لِلحُرّاسِ عندَ بابِ المدينةِ، أمّا عامَّةُ الناسِ فَتُوضَعُ على ذِراعِ الواحدِ منهم عَلامَةٌ مَطْبُوعَةٌ، لِتكونَ بمثابةِ تَصْريحٍ لهم بِمُغادرةِ المدينةِ إذا أرادُوا ذلكَ!

ومثلِ مدينةِ **(أَسْيُوط)** التي أعجبته أسْواقُها البديعةُ، ومدينةِ **(قُوص)** التي أشارَ إلى كَثْرةِ مَساجِدِها ومَدارِسِها، ومدينةِ **(أَسْنَا)** التي وَصَفَها بأنَّها «مدينةٌ عظيمةٌ، مُتّسعةُ الشوارعِ، ضخمةُ المَنافعِ، كثيرة الزّوايا والمدارس والجوامع، لها أَسْواقٌ حِسَان وبساتينُ ذاتُ أَفْنانٍ».

أما **(القاهرة)** عاصمةُ الديارِ المِصْرِيَّةِ فَقَدْ أَدْهَشَتْهُ بكثرةِ عَمارتِها وبالِغِ بَهائها ونَضارتِها)، فهي «تَمُوجُ مَوْجَ البحرِ بسُكّانِها، وتكادُ تَضِيقُ بهم على سَعَةِ مكانِها وإمْكانِها» ويُقالُ: فيها «من السَّقّائينَ اثنا عَشَرَ ألفَ سَقّاءٍ على الجمالِ» وفي نِيلِها من المَراكبِ «ستةٌ وثلاثون ألفاً للسُلْطانِ والرَعيَّةِ، تمرُّ صَاعِدة إلى الصَّعِيدِ، ومُنْحَدِرَة إلى الاسكندريةِ ودِمياطَ بأنواعِ الخيراتِ والمَرافِقِ».

وزارَ ابنُ بَطُّوطَةَ **مسجدَ عمروِ بنِ العاص** وعدداً كبيراً من المدارسِ التي «لا يُحِيطُ أَحَدٌ بِحَصْرِها لِكَثْرَتِها» كما زارَ المُستشفى الكبيرَ **(المارِسْتان بينَ القَصْرَيْنِ)** وقال إن الواصفَ «يَعْجِزُ عن وَصْفِ محاسِنِهِ، وقد أُعِدَّ فيه من المرافقِ والأدويةِ ما لا يُحْصَرُ!».

لقد خَلَّفَتِ القاهرة أَطْيَبَ الأَثَرِ في نَفْسِ، ابنِ بَطُّوطَةَ، فأَفاضَ في وَصْفِ محاسِنِها، **وأَمّا النِّيلُ فقد فَضَّلَهُ على أنهارِ الأَرْض كُلِّها** فقالَ: «وَنِيلُ مِصْرَ يَفْضُلُ أنهارَ الأرضِ عُذُوبَةَ مذاقٍ واتِّساعَ قُطْرٍ وعِظَمَ مَنْفَعَةٍ، والمُدنُ والقُرى بِضِفَّتَيْهِ مُنْتَظِمةٌ ليسَ في المَعْمُورِ مثلُها، ولا يُعْلَمُ نَهْرٌ يُزْرَعُ عليه ما يُزْرَعُ على النِّيلِ» وقد لاحظَ ابنُ بَطُّوطةَ عندما رَكِبَ النِّيلَ أن المُسافرَ فيه «لا يَفْتَقِرُ إلى

اسْتِصْحابِ الزَّادِ لأنّهُ مهما أرادَ النُّزولَ بالشاطىءِ نَزَلَ لِلْوُضُوءِ والصَّلاةِ وشِراءِ الزَّادِ وغيرِ ذلكَ، **والأسواقُ متصلةٌ من مدينةِ الاسكندريةِ إلى مِصْرَ (القاهِرةِ) ومِنْ مصر إلى مَدِينةِ أسْوانَ من الصَّعِيدِ».**

وتحدَّثَ عن الأهْرامِ فقال إنها «من العَجائبِ المذكورةِ على مَرِّ الدُّهورِ» و «هي بناء بالحَجَرِ الصَّلْدِ المَنْحوتِ، مُتَنَاهي السُّمُوِّ (الارتفاعِ) مُسْتَديرٌ، مُتَّسعُ الأسْفَلِ، ضيِّقُ الأعلى، كالشَّكْلِ المَخْرُوطِ، ولا تُعْلَمُ كيفيةُ بنائها».

وَوَصَفَ ابنُ بَطُّوطَةَ **أهلَ مِصْرَ** بأنهم «ذَوُو طَرَبٍ وسُرورٍ ولَهْوٍ» ويقولُ: «شاهدتُ بها مَرَّةً فُرْجَةً بسببِ بُرْءِ المَلِك النّاصِرِ من كَسْرٍ أصابَ يدَهُ، فزَيَّنَ كُلُّ أهلِ سُوقٍ سُوقَهم، وعَلَّقوا بحوانيتهم الحُلَلَ والحُلِيَّ وثيابَ الحرير، وبقُوا على ذلكَ

أيّاماً ! » .

والملكُ **الناصرُ** الذي يَذْكُرُهُ، والذي كانَ سُلطانَ مِصْرَ عندما وصلَ إليها ابنُ بَطُّوطَةَ هو تاسِعُ سَلاطينِ المَماليكِ البَحْرِيِّين في مِصْرَ، **محمدُ بنُ قَلاوُونَ**، والرحّالةُ المغربيُّ يُكثرُ من الثناءِ عليهِ، والتَغَنيِّ بأفضالِهِ وحُسْنِ سِيرَتِهِ، ويُعَدِّدُ من فَضَائلهِ بِرَّهُ بِقَوافِلِ الحُجّاجِ وإحسانَه إلى الضُّعَفاءِ والمُنْقَطِعينَ منهم في كُلِّ عامٍ، «وكَفَاهُ شَرَفاً ــ كما يقولُ ابنُ بَطُّوطَةَ ــ انتماؤه لِخدمةِ الحَرَمَيْنِ الشريفَيْنِ»، كما يذكرُ حِرْصَهُ على نَشْرِ العَدالةِ في مَمْلكتِه، إذْ كانَ يَقعُدُ بنفسِه للنظرِ في المَظَالِمِ، في يَوْمَيْنِ من كُلِّ أسبوعٍ، لِتَلقِّي شَكاوى الناسِ، والعملِ على إنْصافِهِم، ويَقْعُدُ معَه القُضاة الأربعةُ (لِكُلِّ مَذْهَب قَاضِيهِ) عن يَسارِهِ، لِيَتِمَّ إحقاقُ الحقّ، وإنصافُ المظلومينَ ورَدْعُ الظّالِمينَ.

المرحلة الثالثة

ابن بطوطة في ديار الشام

في مُنتصف شعبانَ عامَ ٧٢٦هـ **غادرَ ابنُ بَطُّوطَةَ مِصْرَ إلى الشام** عن طَريقِ **بُلْبَيْسَ والصالحيةِ**، وكانَ طريقُ السفرِ في **صحراءِ سيناء** مُزَوَّداً بكُلِّ ما يَكفُلُ الراحةَ لِلمُسافرين، **ففي كُلِّ** منزلٍ (مَحطَّةٍ) مِنْ مَنازلِ الطَّريقِ فُنْدُقٌ (ويُسمّى الخانَ) يَنْزِلُه المُسافرون بِدوابِّهم، وبخارجِ كُلِّ خانٍ ساقيةٌ للسَّبيلِ، وحانوتٌ يَشْتَري منه المُسافرُ ما يَحْتاجُ إليهِ لنفسِه ودابَّتِـهِ. وهكذا اجتازَ ابنُ بَطُّوطَةَ المنازلَ في **(السَّوادَةِ والمُطَيْلِبِ**

والعَريشِ والخَروّبةِ) حتى بَلَغَ **(قَطْيا)** وهي المَحَطَّةُ التي فيها «تؤخَذُ الزّكاةُ من التجارِ، وتُفَتَّشُ أمتعتُهم، وفيها الدواوينُ والعُمّالُ والكُتّابُ، ولا يَجُوزُ عَليها أحدٌ من الشامِ إلا بِبَراءةٍ (تَصْريحٍ خَطّيٍّ) من مِصْرَ، ولا إلى مِصْرَ إلا بَبَرَاءة منَ الشّامِ، احتياطاً على أمْوالِ الناسِ، وتَوَقّياً من الجَواسيس!

وبِوُصولِ ابن بَطّوطَةَ إلى مدينة **(غَزَّة)** حَلَّ في أوَّلِ بلادِ الشامِ ممّا يلي مِصْرَ، وقَدْ وَجَدَها «كثيرة العَمَارَةِ، حَسَنَة الأسواقِ، بها المساجدُ الكثيرة، والأسوارُ عليها».

ومن غَزَّةَ سافَر ابنُ بَطّوطَةَ إلى **مدينةِ الخليلِ**، وزارَ مَسجدَها المبنيَّ بالصخرِ المَنْحُوتِ، وفيه الغارُ المُقَدَّسُ، وقُبورُ ابراهيمَ واسحقَ ويعقوبَ؛ وانتقلَ

من الخليلِ إلى بَيْتِ المَقْدِسِ، حيث عَرَجَ النبيُّ العربيُّ إلى السماء، وهو يَصِفُ المدينةَ بِقَوْلِهِ: «البلدةُ كبيرة مُنيفةٌ، مَبْنِيَّةٌ بالصخرِ المنحوتِ» وأما مسجدُها العظيمُ فهو «من المساجدِ العجيبةِ الرائقةِ، الفائقةِ الحُسنِ، يُقالُ: إنه ليسَ على وجهِ الأرضِ مسجدٌ أكبرُ منه، ولهُ أبوابٌ كثيرة، والمسجدُ كلُّه فضاء غيرُ مَسْقوفٍ، إلا المسجدَ الأقصى فهو مسقوفٌ، في النهايةِ من إحْكامِ العَمَلِ وإتْقانِ الصَّنْعَةِ، مُمَوَّهٌ بالذَّهَبِ والأَصْبغَةِ الرائقةِ.. وقُبَّةُ الصخرةِ من أعْجبِ المباني وأغربِها شَكلاً.. وهي قائمةٌ على نَشَزٍ (مُرْتَفَعٍ) في وَسَطِ المسجدِ، يُصْعَدُ إليها في دَرَجِ رُخامٍ، ولها أربعةُ أبوابٍ، والدائرُ بها مفروشٌ بالرُّخامِ أيضاً، مُحْكَمُ الصنعةِ، وكذلكَ داخلَها، وفي ظاهِرِها

وباطِنها من أنواعِ التَّزويقِ، ورائقِ الصنعةِ ما يُعجزُ الواصفَ، وأكثرُ ذلك مُغَشّى (مُغَطّى) بالذهبِ، فهي تَتَلألأُ نُوراً، وتلمعُ لَمعانَ البَرْقِ، يحارُ بَصَرُ مُتأمِّلها في مَحاسِنِها».

وتَنَقَّلَ ابنُ بَطوطة في (عَسْقَلانَ) و(الرَّمْلَةِ) و(نابُلُسَ) ووصفَ أهمَّ ما شهِدَهُ في هذهِ المدنِ الفلسطينيةِ، ثم سافرَ إلى مدينة عَجْلُون، ومنها اتَّجَهَ نحوَ الساحلِ، ماراً بالغَوْرِ، «وهو وادٍ بينَ تلالٍ، به قبرُ أبي عُبيدةَ بنِ الجَرّاحِ» الفاتحِ الاسلاميِّ العظيمِ، فزاره وباتَ في الزاويةِ المبنيةِ عليهِ ليلتَهُ، قبلَ أنْ يُتابعَ الطريقَ إلى مدينةِ (عَكَّة) وكانتْ يومَذاك خَراباً، ثم سافرَ منها إلى مدينةِ (صُورٍ)، وهي خَرابٌ أيضاً، وانتقلَ منها إلى مدينةِ (صَيْداء) فأعجبته بكثرةِ فَواكهها، ونَزَلَ في ضِيافةِ قاضيها، ثم

رَحلَ عنها إلى (**طَبَريَّةَ**) فَشهِدَ حمّاماتِها العجيبةَ، ثم سارَ عنها إلى (**بَيْروتَ**) وكانتْ يومَذاكَ «مدينةً صغيرة» فلَمْ يَقِفْ عندَها طويلاً، وتابعَ طريقَهُ إلى مدينةِ (**طَرَابُلُسَ**) فتوقَّفَ فيها لِيَصِفَ ضخامَتَها: «فهي إحدى قَواعِدِ الشامِ وبُلدانِها الضخامِ، تَخْتَرِقُها الأنهارُ، وتَحُفُّ بها البساتينُ والأشجارُ.. ولها الأسواقُ العجيبةُ والمسارحُ (المراعي) الخَصيبةُ، والبحرُ على مِيلَيْنِ منها».

ثم ارتحلَ إلى (**حِمْصَ**) فوصفَها وتحدثَ عن أهلِها: «وأهلُ حمصَ عَرَبٌ لهم فَضْلٌ وكَرَمٌ»، وبعد أن زارَ **مسجدَ خالدِ بنِ الوليدِ** فيها، سافر منها إلى (**حَماةَ**) فوصفَ المدينةَ وبساتينَها ونواعيرهَا ونهرَ العاصي الذي يَشُقُّها، وأبدى إعجابَه بِفَواكهها الكثيرةِ، ومنها المشمشُ اللَّوْزيُّ، «إذا كَسَرْتَ نواتَه

وجَدْتَ في داخِلها لَوْزَةً حُلوَةً». ومِنْ حَماةَ ارتحلَ إلى مدينةِ **(المَعَرَّةِ)** فوَجَدَها «مدينةً كبيرة حسنةً، أكثرُ شجرِها التينُ والفُستُقُ، ومنها يُحمَلُ إلى مِصْرَ والشامِ».

وقبل أن يرتحلَ إلى مدينةِ حَلَبَ، يجتازُ ابنُ بَطُّوطَـةَ بمدينةِ **سَرْمينَ**، ويتحدثُ عن كَثْرةِ بَساتِينها وشَجرِ الزيتونِ فيها، ويذكر أنواعاً من الصَّابُون يُصْنَعُ فيها، ومنه «الصابونُ المطيَّبُ، لِغَسلِ الأَيدي، ويَصْبغونَه بالحُمْرَةِ والصُفْرَةِ» وقد استطاعتْ **(حَلَبُ)** أن تَحُوزَ بالغَ إعجابِ الرحّالِ المغربيِّ، فوصفَها بقولِهِ: «المدينةُ الكُبرىٰ، والقاعدةُ العُظمَىٰ» **وأَسْهَبَ في وصفِ قَلْعَتِها وأَسْواقِها ومسجِدِها الجامعِ ومدارِسِها**، والبساتينِ المُمتدةِ على شاطىء نهرِها، وقد أخطأَ في تسميةِ النهرِ، فذكر

أنّه العاصي الذي يَمُرُّ بحماةَ، وهو سَهْوٌ وَوَهْمٌ، ويبدو أن اسْمَ (قُوَيْقٍ) غابَ عن ذاكِرَتِهِ، ولكنَّ صورةَ المدينةِ الكُبرى بِجَلالِها وعَظمَتِها ظلَّتْ في ذاكرتِهِ، فأنهى وصفَه لها بقَولِهِ: «**وهي من المُدُنِ التي تَصْلحُ للخلافةِ**».

وتابعَ ابنُ بَطّوطَةَ رِحْلَتَه إلى **أنطاكِيَّةَ واللاذقيَّةِ وجبلِ لُبنانَ وبَعْلَبَكَّ** إلى أنْ حَطَّ الرِّحالَ في **دِمَشْقَ** في التاسعِ من شهرِ رمضانَ عامَ ٧٢٦ هـ، وقد أخذتْ عاصمةُ الأمويين بِلُبِّهِ، فاعترفَ بأنَّها «**تَفْضُلُ جميعَ البلادِ حُسْناً** وتَتَقَدَّمُها جَمالاً، وكلُّ وَصْفٍ وإنْ طالَ فهو قاصِرٌ عن محاسِنِها» وكانَ أوّلُ ما حَرِصَ على مُشاهدتِهِ فيها هو جامعَها «المعروفَ **بجامعِ بني أميةَ، وهو أعظمُ مَساجِدِ الدنيا** احتفالاً، وأتقنُها صناعةً وأبْدَعُها

حُسْناً وبَهْجَةً وكَمَالاً، ولا يُعْلَمُ له نَظيرٌ ولا يُوجدُ له شَبيهٌ!» أما قُبّةُ الجامعِ الهائلةُ فإنها تبدو عاليةً، ويَراها الناسُ من أيّةِ جِهَةٍ في المدينةِ؛ وأمّا صَحْنُ الجامعِ فهو فَسِيحٌ يجتمعُ فيهِ أهلُ المدينةِ في العَشِيّاتِ، فمِنْ قارىء ومُحدِّث، ويكونُ انصرافُهم بعدَ صلاةِ العِشاء الأخيرةِ؛ وفي الرُّكنِ الشرقيِّ من الجامعِ خِزانةٌ كبيرة فيها المُصْحَفُ الكريمُ الذي بَعَثَ به الخليفةُ الراشدُ الثالثُ عثمانُ إلى الشامِ، وتُفتَحُ هذه الخزانةُ كُلَّ يوم جُمعةٍ بعدَ الصلاةِ، فيزدحمُ الناسُ على لَثْمِ المُصْحَفِ؛ وقد انتبهَ ابنُ بَطُّوطَةَ إلى أنَّ الحياةَ الاقتصاديةَ تتركَّزُ في الأسواقِ المُحيطةِ بهذا المسجدِ العظيمِ، من كُلِّ جانبٍ من جوانبه، وعندَ كُلِّ بابٍ من أبوابِهِ الأربعةِ، بحيثُ يُطِلُّ كُلُّ بابٍ منها على مَرْفَقٍ هامٍ من مَرافِقِ المدينةِ وبعضِ أسواقِها المشهورةِ.

ووصفَ ابنُ بَطّوطَةَ **حَلَقاتِ التدريسِ في جامعِ بني أميةَ**، حَيثُ تُدرَّسُ فيها فُنونُ العِلْمِ، وشَهِدَ العالمَ الفقيهَ **ابنَ تَيميَّةَ** وهو يَعِظُ النَّاسَ يومَ الجُمعةِ، على مِنْبرِ الجامعِ، وكانَ يَومذاكَ كبيرَ فُقهاءِ الحنابلةِ، وعالمَ دمشقَ الأكبرَ، وكانَ أهلُ دمشقَ يُعظِّمُونَهُ أَشَدَّ التعظيمِ.

وتَحَدَّثَ ابنُ بَطّوطَةَ عن **أهالي دمشقَ** وقال إنهم لا يَعملون يومَ السبتِ عَمَلاً، وإنما يَخْرُجونَ إلى المُتنَزَّهاتِ وضفافِ الأنهارِ، ودَوْحاتِ الأشجارِ، بينَ البساتينِ النَّضِرَةِ والمياهِ الجاريةِ، ويَقْضُون يومَهم إلى الليلِ، في راحةٍ وبَهْجَةٍ واستمتاعٍ بجمالِ الطبيعةِ وفِتْنَتِها، وأَشادَ ابنُ بَطّوطةَ بِحُبِّ أهلِ دمشقَ لعملِ الخَيْرِ والبِرِّ والإحسانِ، وتَحدَّثَ عن الأوقافِ الكثيرةِ التي خَصَّصوها لِتَقديمِ العَوْنِ لِلمُحتاجينَ:

فأوقاف لإعانةِ العَاجزينَ عن القيامِ بفريضةِ الحجِّ، وأوقافٌ لِفكاكِ الأَسْرى، وأوقافٌ لأَبناء السَّبيلِ من الغُرباء، وأوقافٌ لِتعديلِ الطرُقِ في المدينةِ وَرصْفِها، وأنواعٌ أخرى من الأَوقافِ، لا تَخطرُ على البالِ، وهو يروِي حكايةَ نوعٍ منها بِقَولِهِ: «مررتُ يَوماً ببعضِ أَزِقَّةِ دمشقَ فرأيتُ مَملوكاً صغيراً (عبداً صغير السِّنِّ) قد سَقَطتْ منهُ صَحْفَةٌ (صَحْنٌ) من الفُخَّارِ الصِّينيِّ، فتكسَّرَتْ، واجتمعَ عليهِ الناسُ، فقالَ له بعضُهم: اجْمَعْ شِقَفَها (قِطعَها) واحْمِلها معَكَ لِصاحبِ أوقافِ الأَواني، فجمَعَها وذهبَ الرجلُ معَه إليهِ، فأراهُ إيّاها، فدَفَعَ له ما اشْتَرى به مثلَ ذلكَ الصحنِ!».

ويُلاحظ ابنُ بطوطةَ، وقد قضى أكثرَ شهرِ رمضانَ لعامِ ٧٢٦ هـ في دمشقَ، أَنَّ أهلَها لا يُفْطِرُ

أحدٌ منهم في ليالي هذا الشهرِ الكريمِ وَحْدَهُ، فهم يَجتمعونَ كُلَّ ليلةٍ في دارِ أحدِهم، أو في مسجدٍ، ويأتي كُلٌّ منهم بما عندَه من طعامٍ، فيُفْطِرونَ جميعاً.

وعندما استهلَّ شهرُ شَوّالٍ من هذا العامِ خَرَجَ رَكْبُ الحُجّاجِ الشاميينَ من دِمَشْقَ، وأخذ يتأَهَّبُ للتجمُّعِ والسَّفرِ في قَرية **الكُسْوَةِ، فانضمَّ ابنُ بطوطةَ إلى رَكْبِ حُجّاج الشام**، وكانَ أميرُ الركب لذلك العام أحدَ كبارِ الامراء، وكانَ الرحّالةُ المغربيُّ شديدَ اللهفةِ إلى الرحيلِ إلى الأراضي المقدَّسَةِ، لِقَضاء الفريضةِ التي من أَجْلِها غادرَ مَسْقَط رأسِهِ طنْجَةَ قبلَ أكثرَ من عامٍ.

المرحلة الرابعة

ابن بَطّوطَةَ في الحجازِ والديارِ المقدّسةِ

تَوَقَّفَ رَكْبُ حُجّاجِ الشامِ في مدينةِ **بُصْرىٰ** مَدَّةَ أربعةِ أيامٍ، لِيَلْحَقَ بهِ من تَخَلَّفَ منهم في دمشقَ لقضاء مآربِهِ، وانتهزَ ابنُ بَطّوطَةَ الفُرصةَ فشاهدَ ما في تلكَ المدينةِ من آثارٍ، وأهمُّها المسجدُ العظيمُ الذي شُيِّدَ عند مَبْرَكِ ناقةِ النبيِّ العربيِّ حينَ وَفَدَ إلى بُصْرىٰ قبلَ بِعثتهِ، في تجارةِ خَديجةَ، ثُمَّ استأنَفَ الرَكْبُ سَيْره حتّى بَلَغَ **(تَبُوكَ)** وكانتْ من المَحَطّاتِ الهامَّةِ على طريقِ القَوافلِ إلى الحجازِ، يَتَزَوَّدُ منها المُسافرونَ بالمياهِ، استعداداً لاجتيازِ ما

بعدَها من الصَّحْراء. وهي صَحْراء مُوحِشَةٌ، يُقالُ فيها: داخِلُها مَفْقودٌ، والخارجُ منها مَوْلودٌ! وقد تابَعَ الرَّكْبُ طريقَه حتى وصلَ إلى المدينةِ المنوَّرةِ، ودخَلَ الحُجّاجُ الحَرَمَ النَبويَّ الشريفَ، وانتهوا إلى المسجدِ الكريمِ، ووقَفُوا ببابِ السَّلامِ مُسلِّمينَ، وصَلَّوا بالروضَةِ بينَ القَبْرِ والمِنْبَرِ، وأَحَسَّ ابنُ بَطوطةَ أَن رُوحَهُ تَسِيلُ خُشُوعاً في ذلكَ المَكانِ القُدُسيِّ، وحَمِدَ اللهَ الذي قيَّضَ له زيارةَ قبرِ النبيِّ الأمينِ، وفاضَ قلبُه بالسُّرورِ لِنَيلِهِ تلكَ المِنَّةَ الكُبرى والنِّعْمَةَ العُظمى.

أقامَ ابنُ بَطوطةَ ورفاقُه في المدينةِ أربعةَ أيامٍ، وكانوا يَبيتُونَ الليلَ في المسجدِ، حيثُ أَوْقَدَ الناسُ الشَّمْعَ الكثيرَ في صَحْنِهِ، وأَخذوا يُرتِّلونَ القُرآنَ ويذكرونَ الله، وانصرفَ بعضُهُم إلى الترنُّمِ

بالاناشيدِ في مدحِ الرّسُولِ. وكانَ زُوّارُ المسجدِ النَبَويِّ يَجُودون بالصَّدَقاتِ على المُجاورينَ والمُحتاجينَ، وَسط تلكَ المَظاهرِ الدينيةِ الرائعةِ.

وغادرَ الركبُ مدينةَ الرسولِ قاصِداً **مكةَ المُكرَّمَةَ**، فلمّا بلَغَ واديَ العَقيقِ لَبِسَ الحُجّاجُ ثيابَ الإحْرامِ، وتابَعوا الطريقَ يَقْطعونَ المراحلَ حتى وَصَلوا مع الصباحِ إلى البَلَدِ الأَمينِ، وأَسْرَعوا لِيَدْخُلوا البيتَ الحَرَامَ من بابِ بني شَيْبَةَ، ويُشاهِدوا **الكعبةَ الشريفةَ**، ولْنَتْرُكِ ابنَ بَطوطةَ يَصِفُ تلكَ اللحظةَ السعيدةَ في حياتِهِ إذ يقولُ: «ودخَلْنا البيتَ الحرامَ الذي مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً، مِنْ بابِ بني شَيْبَةَ، وشاهَدْنا الكعبةَ الشريفةَ ــ زادَها الله تعظيماً ــ وهي كالعَروسِ تُجلْى على مِنَصَّةِ الجَلالِ، وتَرْفُلُ في بُرودِ الجَمالِ، مَحْفُوفَةً بِوفودِ الرحمنِ، مُوصِلَةً إلى

جَنَّةِ الرضوانِ، وَطـُفْنا بها طوَافَ القُدوم، واستَلَمْنا الحجَر الكريمَ، وصَلَّينا رَكْعَتَيْنِ بِمَقَامِ إبراهيمَ، وتَعَلَّقْنا بأستارِ الكَعْبَةِ عندَ المُلْتَزَم، بينَ البابِ والحَجَرِ الأسودِ، حيثُ يُستَجابُ الدُّعاء، وشربنا من ماء زَمْزَمٍ..، ثُمَّ سَعَيْنا بين الصَّفا والمَرْوَةِ، ونَزَلْنا هُنالِكَ بِدارٍ بِمَقْرُبَةٍ من بابِ ابراهيمَ، والحمدُ للهِ الذي شَرَّفَنا بالوِفادةِ على هذا البيتِ الكريمِ، وَمَتَّعَ أعينَنا بِمُشاهَدةِ الكعبةِ الشريفةِ والمسجدِ العظيمِ».

ويُسْهِبُ ابنُ بَطـُّوطـَةَ في **وَصْفِ تلكَ الأماكنِ القُدسيَّةِ: المسجدِ الحرامِ والكعبةِ المُعظمةِ المُشرَّفةِ والحجرِ الأسودِ والمَقامِ الكريمِ والحِجْرِ والمطافِ، وبئرِ زَمْزَمٍ** المباركةِ، كما **يُفيضُ في** الحديثِ عن **شعائر الحجِّ**: «فإذا كانَ اليومُ السابعُ

من ذي الحِجّةِ خطبَ الخطيبُ إثْرَ صلاةِ الظُّهْرِ خُطبةً بليغةً يُعَلِّمُ الناسَ فيها مناسِكَهم، ويُعْلِمُهم بيوم الوَقْفَةِ. فإذا كانَ اليومُ الثامنُ بكَّرَ الناسُ بالصُّعودِ إلى مِنىً، فإذا كانَ اليومُ التاسعُ رَحَلوا من مِنى بعدَ صَلاةِ الصُّبحِ إلى عَرَفَةَ، وعَرَفاتُ بَسِيط من الأرضِ فسيحٌ، تُحْدِقُ به جِبالٌ كثيرة، وفي آخرِ بسيطِ عَرَفَاتِ جَبَلُ الرحمةِ، وفيه المَوْقِفُ. وفي أسْفَلِ هذا الجبلِ صهاريجُ وجِبابٌ لِلْماء، وبِمَقْرُبَةٍ منهُ المَوْضِعُ الذي يَقِفُ فيه الإمامُ ويَخْطُبُ... وإذا حانَ وَقْتُ النَّفْرِ أشَارَ الإمامُ بيدِهِ، ونَزلَ عن مَوْقِفِهِ، فَدَفَعَ الناسُ بالنَّفْرِ دَفْعَةً تَرْتَجُّ لها الأرضُ وتَرجُفُ الجِبالُ، فيا لَهُ مَوْقِفاً كريماً، ومَشْهَداً عظيماً، ترجو النفوسُ حُسْنَ عُقْباه!».

ويَتَحدَّثُ ابنُ بَطُّوطَةَ عن قيامِهِ بِمَناسِكِ حَجِّه فيقولُ:

«وكانت وَقْفَتي الأُولى يومَ الخميسِ عامَ ٧٢٦ هـ، ولمَّا وقَعَ النَّفْرُ بعدَ غُروبِ الشمسِ وَصَلْنا **مُزْدَلِفَةَ** عند العِشاء الآخرةِ... ولما صَلَّينا الصُّبْحَ بمُزْدَلِفَةَ غَدَوْنا منها إلى **مِنى**، بَعد الوقوفِ والدُّعاء بالمَشْعَرِ الحَرامِ، ومِنْ مُزْدَلِفَةَ يَستصحبُ أكثرُ الناس حصَيَاتِ الجِمارِ، وذلك مُسْتَحبٌّ، ولما انتهى الناسُ إلى مِنى بادَروا لِرَمي جَمْرَةِ العَقَبَةِ، ثم نَحَروا وذَبَحوا، ثم حَلَقوا وحَلّوا من كُلِّ شيء إلاّ النساء والطِّيبَ، حتى يَطوفوا طوَافَ الإفاضَةِ...».

ويُفَصِّلُ ابنُ بطوطةَ الكلامَ على المناسكِ تَفْصيلَ عالمٍ فَقيهٍ حريصٍ على تأديةِ المناسكِ على خَيْرِ الوجوهِ، حتى ينتهيَ إلى وَصْفِ **كُسْوَةِ الكعبةِ**، وكانتْ كُسْوَتُها يومَذاك تُرْسَلُ مِنْ مِصْرَ، فتُوضَعُ في يوم النَحْرِ على سَطحِ الكعبةِ، وتُسْبَلُ على جُدرانِ

الكعبةِ في اليوم الثالثِ بعدَ يوم النَحْرِ، وهي كُسْوة سوداء حالكةٌ من الحريرِ مُبطَّنَةٌ بالكِتَّانِ، وقد طُرِّزَ أعلاها وسائرُ جِهاتِها بآياتٍ من القُرآنِ الكريمِ، مكتوبةٍ بالبياضِ، وبعدَ إكساء الكعبةِ تُشَمَّرُ أذْيَالُ الكُسوةِ صيانةً لها من أَيْدي النَّاسِ.

ولا يُغْفِلُ ابنُ بَطُّوطة الحديثَ عن **أَهْلِ مكةَ وعاداتِهم** ومكارِمِ أَخْلاقِهم، وإكرامِهم للغُرباء في ديارِهم، وهو لا يَكتُمُ إعجابَه بظَرْفِهم ونَظافةِ ملابِسِهم، فيقولُ: **«وأهلُ مكةُ لهم ظَرْفٌ ونَظافَةٌ في الملابِسِ**، وأكثرُ لِباسِهم البياضُ، فَتَرى ثيابَهم أبداً ناصِعةً سَاطِعَةً، ويَستعملونَ الطِّيبَ كثيراً، ويَكْتَحِلونَ، ويُكْثِرونَ السِّواكَ بعيدانِ الأَراكِ الأَخضرِ، ونِسَاءُ مكةَ فائقاتُ الحُسْنِ، بَارِعاتُ الجَمالِ، ذواتُ صَلاَحٍ وعَفَافٍ، وهُنَّ يُكْثِرْنَ

التطيُّبَ، حتى إنّ إحداهُنَّ لَتبيتُ طاويةً وتَشْتري بِقُوتِها طيباً». وقد لاحظ ابنُ بَطُّوطةَ أنَّ أهلَ مكةَ يَتَمَتَّعُون بصحةٍ حسنةٍ ورَشاقةِ جسمٍ، وعَلَّلَ ذلكَ بأنهم لا يَأكُلونَ في اليومِ إلا مَرّة واحِدَة بعدَ العَصْرِ، ويَقْتَصِرونَ على هذهِ الوَجْبَة، ومنْ أرادَ الأكلَ في سائرِ النهارِ أكلَ التَّمْرَ!

وبعدَ أنْ قَضى ابنُ بَطُّوطةَ مناسِكَ حَجِّهِ، لم يُفكِّرْ في القُفولِ إلى وَطنِهِ، إذْ كانَ الشوقُ إلى التَّجْوالِ في الأرضِ وارتيادِ البلادِ واكتشافِ المَجْهولِ يَغْمُرُ قلبَه، ولهذا نَجِدُه **يَنْضَمُّ إلى رَكْبِ الحُجاجِ العائدينَ إلى العِراقِ**، لِيبدأَ مرحلةً جديدة من مَراحِلِ رِحْلتِهِ الطويلةِ.

المرحلة الخامسة

ابن بَطّوطَةَ في العراقِ وفارِس

كانَ رَكْبُ الحُجّاجِ العراقيينَ العائدُ إلى بلادِهِ رَكْباً ضَخْماً جامِعاً، يَضُمُّ العِراقيينَ والخُراسانيينَ والفارسيينَ والأعاجمَ، ولا يُحصى عددُهم، «تَمُوجُ بهم الأرضُ مَوْجاً، ويَسيرون سَيْرَ السَّحابِ المُتَراكِمِ، فَمَنْ خَرَجَ عن الرَّكْبِ لِحاجةٍ ولم تكُنْ له عَلامَةٌ يَسْتَدِلُّ بها على مَوْضعِهِ ضَلَّ عَنْهُ لِكَثْرةِ النّاسِ» وكان الرّكْبُ مُزَوَّداً بِكُلِّ ما يَحتاج إليه المُسافرونَ لِتَوْفيرِ راحتِهم وسَلامَتِهم، «وهم يَسيرونَ باللَّيْلِ، ويُوقِدونَ المَشاعِلَ، فترىَ الأرضَ

تَتَلألأُ أَنواراً، والليلَ قد عادَ نَهاراً ساطِعاً». وقد ظلَّ الركبُ يَطوي مَراحِلَ الطريقِ مُنذُ **خُروجِهِ من مكةَ** في العشرينَ من ذي الحِجَّةِ عامَ ٧٢٦ هـ مُروراً **بالمدينةِ المُنوَّرَةِ**، حيثُ نَعِم ابنُ بَطّوطَةَ **بزيارةٍ ثانيةٍ لِقَبْرِ الرَّسُولِ** ورَوْضَتِهِ، قبلَ مُتابعةِ المسيرةِ إلى **أرضِ نَجْدٍ**، وما زالَ الرَّكْبُ يقطعُ البواديَ والقفارَ حتى وصل إلى **أرضِ النَّجَفِ** ونَزَلَ في مدينةِ (**مَشْهَدِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ**) وقد وصَفَها ابنُ بَطّوطَةَ بقولِهِ: «هي مدينةٌ حَسَنَةٌ، في أرضٍ فَسِيحةٍ صُلْبةٍ، مِنْ أَحْسَنِ مُدُنِ العِراقِ وأكثرِها ناساً، وأَتْقَنِها بِناء، ولها أَسْواقٌ حَسَنَةٌ نَظيفةٌ» وكانتْ عامِرَة بالمَدارسِ والعُلماء، وقد انفصلَ ابنُ بَطّوطةَ عن الرَّكْبِ العِراقيِّ، وبَقِيَ مَعَ بعضِ رفاقِهِ، مُعَوِّلاً على مُشاهدةِ تلكَ البلادِ والسِّياحةِ فيها، وهو

يَصِفُ في رِحْلَتِهِ القَبْرَ «الذي يَزْعُمونَ أَنّه قبرُ عليٍّ عليه السلامُ» والحضرةَ التي فيها قبرُ الإمامِ، والتي يَتقاطرُ عليها الزُوّارُ، وعندها مدرسةٌ عظيمةٌ يسكُنُها الطلبةُ والصوفيَّةُ من الشِّيعَةِ، «ولِكُلِّ واردٍ عليها ضيافةُ ثلاثةِ أيامٍ من الخُبزِ واللَّحْمِ والتَّمْرِ، مَرَّتَينِ في اليومِ» وكان سُكَّانُ هذه المدينةِ من غُلاةِ الشيعةِ، ويُديرُ أمُورَ المدينةِ نقيبُ الاشرافِ، كما يتولّى تَصْريفَ شُؤونِ أهلِها؛ وبعدَ أَنْ قَضى ابنُ بَطُّوطَةَ حاجتَه من زيارةِ القبرِ ووصفَ ما شاهدَه هُناكَ من قَناديلِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، وطسُوتِ ماء الوردِ والمِسْكِ وأنواعِ الطِّيبِ، وهيَ من الذَّهَبِ والفِضَّةِ أيضاً، يَغْمِسُ الزائرونَ أصابعَهم فيها تبرُّكاً، سافَرَ ابنُ بَطُّوطَةَ صُحْبَةَ رُفقةٍ كبيرةٍ مِنْ **عَرَبِ خَفَاجَةَ**، وهم ــ كما يقولُ ــ: «أهلُ تلكَ البلادِ،

ولهم شَوْكَةٌ عظيمةٌ وبأسٌ شديدٌ، ولا سبيلَ لِلسَّفرِ في تلك الأقطارِ إلاّ في صُحْبَتِهم» حتى بَلغُوا مدينة (واسِط). وأهلُها كما يصفُهم «مِنْ خِيارِ أهلِ العِراقِ، بل هُم خيرُهم على الإطلاقِ، أكثَرُهم يحفظونَ القُرآنَ الكريمَ ويُجيدونَ تَجْويدَه بالقراءةِ الصحيحةِ، وإليهم يأتي أهلُ بلادِ العراقِ لِتَعلُّمِهِ، وبها مدرسةٌ عظيمةٌ حافِلَةٌ، فيها نَحْوُ ثلاثِمائةِ خَلْوةٍ يَنْزِلُها الغُرَباء القادِمون لِتعَلُّمِ القُرآنِ».

ومن واسِط رحلَ ابنُ بَطّوطَةَ إلى مدينةِ (البَصْرةِ) فلَقِيَ من أعيانِها كُلَّ تَرْحيبٍ، وأقامَ في ضِيافَةِ بعضِ عُلَمائِها، وصَلَّى الجُمعةَ في جامِعِها الكبيرِ، وأَصْغى إلى الخطيبِ الذي كان يَلْحَنُ في خُطبتِهِ لَحْناً كثيراً، وعَجِبَ مِنْ أَمرِهِ، وأفضى بِدَهْشَتِهِ إلى بَعْضِ القُضاةِ في البَصرةِ فقالَ له: «إن

هذا البلدَ لم يَبْقَ بهِ مَنْ يَعْرِفُ شيئاً من علمِ النَّحْوِ!» ويجدُ ابنُ بطوطةَ في ذلك مَوضِعاً للاعتبارِ فيقول: «هذه عِبْرة لِمن تَفَكَّرَ فيها، فسُبحانَ مُغيِّرِ الأشياء ومُقلِّبِ الأُمورِ! هذه البصرةُ التي إلى أهلِها انتهتْ رِياسةُ النَّحْوِ، وفيها أَصلُهُ وفَرْعُهُ، ومِن أهلِها إمامُه الذي لا يُنكَرُ سَبْقُهُ، لا يُقيمُ خطيبُها خُطبَةَ الجُمعةِ على دُؤوبِهِ عَلَيْها!».

ثم رَكِبَ ابنُ بَطُّوطَةَ من ساحلِ البَصرةِ قارِباً صغيراً نَقَلَهُ إلى (**الأُبُلَّةِ**) وقد قالَ فيها: «كانتِ الأُبُلَّةُ مدينةً عظيمةً يَقْصِدُها تُجَّارُ الهِنْدِ وفارسَ، فخربتْ، وهي الآنَ قريةٌ بها آثارُ قُصورٍ وغيرها دالةٌ على عِظَمِها». ومنها انتقلَ الرّحّالةُ بَحْراً إلى مدينةِ (**عَبّادانَ**) فَوَصَفَها بكثْرةِ المساجدِ والرِّباطاتِ المأهُولَةِ بالصالحينَ والعُبَّادِ. وتابعَ طريقَهُ لِزيارةِ بلادِ

اللّورِ في بلادِ فارسَ، فراحَ يجتازُ تلكَ الجبالَ الشامخةَ حتى بلغَ مدينةَ (تُسْتَر) التي يُحيط بها النهرُ الأزرقُ بمياهِهِ الصافيةِ، فنزلَ في ضيافةِ أحدِ أئمتها سِتَّةَ عَشَرَ يوماً، وحضَر في بعضِها مجلسَ وَعْظٍ لمُضِيفِهِ فَأَدهَشَهُ وفَضَّلهُ على جميعِ من سَبَقَ له الاستماعُ إلى وَعْظِهم من الأئمةِ في الحجازِ والشام ومِصْرَ!

وظلَّ ابنُ بَطُّوطَةَ يتنقَّلُ من مدينةٍ إلى أخرى حتى بلغ مدينةَ (أصْفَهانَ)، وقد وصلَ إليها بُعَيْدَ العَصْرِ، بعدَ أنِ اجْتَازَ كثيراً من البَساتينِ والمياهِ والقُرى الحسانِ العامرةِ بأبراجِ الحَمامِ، وقد وجَدَ أصْفَهانَ مدينة مُتَهَدِّمَةً، لِتَوالي الفِتَن بين أهلِها، وهم طائفتانِ من أهلِ السُّنَّةِ والرّوافِضِ (غُلاةِ الشِّيعةِ)، وقد أعْجبَ الرَّحالةُ المغربيُّ بكثْرةِ الفواكهِ في أصْفَهانَ، كما اسْتَرعى انتباهَه جَمالُ أهلِها

وشَهامَتُهم فقال: «وأهلُ أصفهانَ حِسانُ الصُّوَرِ، وألوانُهم بيضٌ زاهرة مَشُوبةٌ بالحُمْرةِ، والغالبُ عليهم الشَّجاعةُ والنَّجْدَةُ».

ثم زارَ ابنُ بَطُّوطَةَ مدينةَ **(شيرازَ)** فنالتْ عظيمَ إعجابِهِ وتقديره، **فراحَ يُقارِنُها بمدينةِ دمشقَ**، وقال فيها: «وليسَ في المشرقِ بَلْدة تُداني مدينةَ دِمَشْقَ في حُسْنِ أسواقِها وبساتينها وأنهارها وحُسنِ صُوَرِ ساكنيها إلاّ شيرازَ».

وبعدَ زيارةِ شيرازَ غادرَ ابنُ بَطُّوطَةَ (عِراقَ العَجَمِ) في طريقه إلى (الكُوفَةِ) عن طريق **(كازَرُونَ ومدينةِ الزَّيْدَيْنِ والحُوَيْزاء)** والكوفةُ ــ كما يصفُها ــ إحدى أمَّهاتِ البلادِ العراقيةِ، وفيها مقابرُ الصحابةِ والتابعينَ، ولكنَّ الخَرابَ كانَ مُسْتَوْلياً عليها عند وُصولِ ابنِ بَطوطةَ إليها، لِكَثْرةِ

غاراتِ البَدْوِ عليها، وتَهدُّمِ سُورِها، وقد رَحَلَ منها إلى مدينةِ (الحِلَّةِ) وأهلُها من طائفةِ الشيعة الإمامية الاثني عَشَريَّةِ، وقد شاهدَ على مَقْرُبَةٍ من سُوقِها الأعظمِ مَسْجداً على بابِهِ سِتْرُ حريرٍ مَسْدُولٌ، وهم يُسمونَه مَشْهَدَ صاحبِ الزَّمانِ، ويعتقدونَ أنَّ إمامَهم المُنتظر دخلَ هذا المسجدَ وغابَ فيهِ، وأنَّهُ سيعودُ إليهم منه، ليقضيَ على الفَسادِ والظُّلْمِ.

ومنَ الكُوفةِ اتَّجهَ ابنُ بطوطةَ إلى (بَغْدادَ) ماراً بكَرْبَلاء التي استشهدَ الحُسَينُ بنُ عليٍّ فيها، وقد زارَ ابنُ بَطُّوطَةَ مَشْهَدَ الحُسَيْنِ في رَوْضةٍ على بابِها الحُجَّابُ، وعلى الضَّريحِ قناديلُ الذَّهبِ والفِضَّةِ، وعلى البابِ أَسْتارُ الحَريرِ.

وكانت (بَغْدادُ) عندَ وُصولِ ابنِ بَطوطةَ إليها مدينةً «قدْ ذَهَبَ رَسْمُها، ولم يَبْقَ إلا ٱسْمُها»

ولقد طافَ الرّحّالةُ المغربيُّ في أرجائِها وجوانبِها، وتحدَّثَ عن مساجِدها ومدارِسها، وحَمَّاماتِها وقُصورِها، وأكثرُها نَهْبٌ بأَيْدي الخَرابِ، كما تَحدَّثَ عن قُبورِ الخُلفاءِ وبعضِ العُلماءِ والصالحين فيها.

ومن عاصمةِ العباسيينَ رَحَلَ ابنُ بَطّوطةَ **إلى المَوْصِلِ**، وزارَ في طريقِهِ مدينةَ **(سُرَّ مَنْ رأى)** «وقد استَوْلى الخرابُ عليها فلم يَبْقَ منها إلا القليلُ»، ومدينةَ **(تكْرِيتَ)** «وهي مدينةٌ كبيرة فسيحةُ الأرجاءِ». أما المَوْصِلُ فقد شهدَ الرحالةُ عليها أَسْواراً منيعةً فوصفَها بقولِه: «وعلى البَلَدِ سُورانِ اثْنانِ وَثِيقَانِ، أَبْراجُها كثيرة مُتَقارِبَةٌ... ولم أَرَ في أسْوارِ البلادِ مِثْلَها» وأَثْنى ابنُ بَطّوطَةَ على **أَهْلِ المَوْصِلِ ومَكارِمِ أخلاقِهم**،

وإحسانِهم إلى الغُرَباءِ وإكْرامِهم إيَّاهُم.

وطافَ رحّالَتُنا بعدَ ذلكَ في مُدُنِ (نَصِيبينَ) و (سِنْجار) و(مارِدين) ووصفَ هذه الاخيرة بأنها «من أحسنِ مُدُنِ الإسلامِ وأبدعِها وأَتْقَنِها وأحسنِها أسْواقاً».

ثُمَّ عادَ ابنُ بَطُّوطَةَ إلى بَغْدادَ، لِينضَمَّ إلى رَكْبِ حُجّاجِ العِراقِ، إذْ كانَ عازِماً على قَضاءِ الفريضةِ للمرَّةِ الثانيةِ، وكان سُلطانُ العِراقِ «أبو سعيدٍ» أَوْعَزَ إلى أَعْوانِهِ بتقديمِ العَوْنِ للرحّالةِ المغربيِّ، في سَفَرِهِ إلى الحجازِ، فَلَقِيَ من عنايةِ أميرِ الرَّكْبِ ما يُرْضِيهِ، وكانَ ابنُ بَطُّوطَةَ عندَ خُروجِ الرَّكْبِ من الكُوفةِ مُتْعَباً مَريضاً، وقد أصابَهُ إسْهالٌ عانى منه كثيراً في أثناءِ الرِّحْلَةِ، وأميرُ الرَّكْبِ العِراقيِّ يَتَفَقَّدُه ويُوصي به، ولم يَزَلْ مريضاً حتى وَصَلَ إلى **مكةَ المُكَرَّمَةِ**.

المرحلةُ السادسةُ

ابنُ بَطّوطةَ في الجزيرةِ العربيةِ

قضى ابنُ بَطّوطةَ مناسِكَ حِجَّتِهِ الثانيةِ عامَ ٧٢٧ هـ وهو مريضٌ، فلما انقضى الموسِمُ أقامَ مُجاوِراً بمكةَ تلكَ السنةَ، حتى عُوفِيَ من مَرضِهِ، وتَفرَّغَ لِلطّوافِ في البيتِ والعبادةِ والاعْتِمارِ، طَوالَ تلكَ السنةِ، ثُمَّ حَجَّ للمرةِ الثالثةِ عامَ ٧٢٨ هـ وظلَّ بعدَها مُجاوِراً بمكةَ، حتى قضى مناسكَ حِجَّتِهِ الرابعةِ عامَ ٧٢٩ هـ، وتابعَ جِوارَه لِلحَرَم عامَ ٧٣٠ هـ وفي موسم هذا العامِ وقعتِ الفتنةُ بينَ أميرِ مكةَ وجُنْدِ المَلِكِ الناصرِ في الحَرَمِ، فغادرَ ابنُ بَطّوطةَ

مكةَ قاصِداً بلادَ اليَمَنِ عن طَريقِ **جُدَّة**، ومنها رَكِبَ البحرَ، **لأوّلِ مرةٍ في حياتِهِ**، وكانتِ الريحُ في اليومينِ الأَوَّلَيْنِ طَيِّبةً رُخَاء، ثم تَغَيَّرَتْ، فأصبحتْ عاصفةً هَوْجاء، وكادتْ سفينةُ ابنِ بَطُّوطَةَ تضيعُ بين تَلاَطُمِ الأمواجِ، إلا أَنّها حَطَّتْ بعدَ أهوالٍ في مَرْسى يُعْرَفُ بِرَأْسِ دَوائِرَ، ويقعُ بَينَ (**عَيْذابَ**) و(**سَواكِنَ**) على ساحلِ بَحرِ القُلزُم (الأحمرِ) واكترى ابنُ بَطوطةَ مع رفاقِهِ جِمالاً من سُكانِ تلك الناحيةِ، وهمُ البُجَاة، «سوْدُ الالوانِ، لباسُهم المَلاحِفُ الصُّفْرُ، ويَشُدُّونَ على رُؤسِهم عصائبَ حُمْراً» إلى أنْ وصلوا إلى (سواكنَ) ومنها رَكبوا **البحرَ إلى اليَمَنِ**، وبعدَ ستةِ أيامٍ نزلوا في مدينةِ (**حَلِي**) حيثُ لَقِيَ ابنُ بَطُّوطةَ أميرَها، فَاحْتَفى به، وكانا قد تعارَفا في مَوْسِمِ الحجِّ

السابقِ، وأقامَ الرَّحالةُ المغربيُّ في ضِيافتِه أياماً، ثم رَكِبَ البحرَ في مَرْكَبٍ له في طريقِهِ إلى مدينةِ (زُبَيْد) «وبينَها وبينَ صَنْعَاءَ أربعونَ فَرْسخاً، وليسَ باليمنِ بعدَ صَنْعاء أكبرُ منها ولا أغنى من أهلِها» كما يقولُ، وهو يَصِفُ أهلَها بلَطافَةِ الشمائلِ وحُسْنِ الأخلاقِ وجَمالِ الصُّوَرِ، ويُشيرُ إلى جَمَالِ نسائِها وحُسْنِهنَّ الفائقِ، ويُثني عليهنَّ أطيبَ الثناءِ، وقد نَزَلَ ابنُ بَطُّوطَةَ في زُبيد بضيافةِ فُقَهائِها، فأكرَمُوه وأَرَوْهُ بساتينَهم وحَدَائقَهم. ثم سافرَ منها إلى مدينةِ (تَعِزّ) عاصمةِ مَلِكَ اليمنِ، «وهي — كما يقولُ — من أحسنِ مُدُنِ اليمنِ وأعظمِها، وأهلُها ذَوُو تَجَبُّرٍ وتكبُّرٍ وفَظَاظَةٍ»، وقد نزلَ فيها بضيافةِ قاضي قُضاتِها وأقامَ عندَه ثلاثةَ أيامٍ، وفي اليوم الرابع قَدَّمَه إلى السُّلْطانِ فسألَهُ عن

بِلادِهِ والمَواطنِ التي زَارَها، ثم أمرَ بإكْرامِهِ واستضافَتِهِ، فأقامَ في ضيافةِ سُلْطانِ اليَمَنِ أياماً، ثم سافَرَ إلى (**صَنْعَاء**) وقد استرعى نظرَه فيها نُزولُ الأمطارِ بها صَيْفاً، كما لاحَظ أنَّ «مدينةَ صَنْعاء مفروشةٌ (مُبَلَّطَـةٌ) كلـُّها، فإذا نزلَ المطرُ غَسَلَ جميعَ أزِقّتِها وأنْقَاها»، وانْتقلَ من صَنْعاء إلى **عَدَنٍ**، ميناءِ اليمنِ الأكبرِ، وفيه تَرْسُو المراكبُ العظيمةُ، ونزلَ ابنُ بَطُّوطةَ في عَدْنٍ في ضيافةِ أحدِ تُجّارِها، وأشارَ إلى ثراءِ التُجّارِ في هذه المدينة، وتفاخُرِهم بكثْرةِ أمْوالهم ومُباهاتِهم بذلك. ثم عَبَرَ ابنُ بَطُّوطَةَ البحرَ من عَدَنٍ إلى مدينةِ (**زَيْلَع**) ــ في الصُّومالِ ــ وأهلُها سُودُ الألْوانِ، وقد وَجَدَها «أقْذَرَ مَدينةٍ في المَعْمُورِ» ثُمَّ رَحَلَ عنها بطريقِ البحرِ إلى (**مَقْدَشَوْ**) فَوَصَلَ إليها بعدَ خمسةَ عشرَ يوماً، ونزلَ في ضِيافةِ عُلمائها،

واصطحبَهُ قاضيها إلى لِقاءِ سُلطانِها المُلَقَّب بـ(الشَّيْخ) فأمرَ بإنْزالِهِ بدارِ الطَّلَبةِ، المُعدَّةِ لِضيافتهم، وهي بِمَقْرُبَةٍ من دارِ الشَّيْخ، وحُمِلَ إليه الطعامُ منها، وأقبلَ معه أحدُ الوزراء زِيادة في الترحيبِ به، وقد لاحظَ إفْراطَ الناسِ هُناك في الأَكْلِ، وضَخامةَ أجسامِهم، ويومَ الجُمعةِ صحِبَ القاضيَ إلى الصلاةِ، وكان السُّلْطَانُ هناك في المسجدِ، فسَلَّم ابنُ بَطُّوطةَ عليه، ورَحَّبَ السُّلْطَانُ بِهِ وخاطبَهُ بالعربيةِ قائلاً: «قَدِمْت خيرَ مَقْدَمٍ وشرَّفْت بلادَنا وآنَسْتَنا!».

ثم رَحَلَ ابنُ بَطُّوطةَ من أرضِ الصُّومالِ عائداً إلى جنوبِ بلادِ العَربِ مرة أخرى، وزارَ مدينةَ (ظَفَارِ) وهيَ آخرُ بلادِ اليمنِ على ساحلِ البحرِ الهِنْديِّ، وبينها وبينَ (عَدَن) في البَرِّ مسيرةُ شَهْرٍ في

صَحْراءَ، وسُكّانُها أَهْلُ تواضُعٍ وأخلاقٍ حميدةٍ وإيثارٍ للغرَباءِ وأكثرُ أهلِها يَسيرون مَكْشُوفي الرُّؤوسِ، وهم يُشْبِهُونَ أهلَ المغربِ في أمورٍ كثيرةٍ، وهذا التشابهُ يُقوِّي القولَ بأنَّ صَنْهَاجَةَ وسِواهُم من قبائِلِ المَغْربِ أصلُهم مِن حِمْيَرٍ.

ثم رَحَلَ ابنُ بَطُّوطَةَ إلى مدينةِ **(الأَحْقَافِ)** على مَسيرةِ نصفِ يومٍ من ظَفَارٍ، وفيها بَساتينُ المَوْزِ وأشجارُ النَّارَجيلِ المعروفِ بِجَوْزِ الهِنْدِ، ثم تابعَ ابنُ بَطُّوطَةَ رِحْلَتَهُ حتى وصلَ إلى بلادِ **عُمَانَ**، وأهلُها إباضِيَّةُ المَذْهَبِ (فرقةٌ من الخوارج) ولهم نَجْدَة وشجاعةٌ، والحربُ قائمةٌ فيما بينَهم أَبداً، وقد لاحَظ ابنُ بَطُّوطَةَ أن من عادةِ الناسِ في **(نَزْوا) قاعدةِ عُمانَ** أنْ يأكُلوا في صُحونِ المساجِدِ، «فيأتي كُلُّ إنسانٍ بما عندَه، ويجتمعونَ لِلأكلِ في صَحْنِ

المسجدِ، ويأكلُ معَهم الواردُ والصَّادِرُ!».

ثم سافرَ ابنُ بَطُّوطَـةَ إلى بلادِ **هُرْمُزَ،** على الساحلِ الفارسيِّ، وتَنَقَّلَ هُناكَ حتّى وَصَلَ إلى مدينةِ **(سِيرافَ)** وأهلُها من أَشرافِ الفُرسِ، وفيها طائفةٌ من عَرَبِ بني سَافٍ، ومنهم أكثرُ الغَوَّاصين على اللُّؤلُؤِ، ومَغَاصُهُم بينَ سِيرافَ والبحرينِ.

واجتازَ ابنُ بَطُّوطَـةَ البَحْرَ إلى البَحْرَيْنِ، وانتقَلَ منها إلى مدينةِ **(القَطِيفِ)** وأهلُها من غُلاةِ الشِّيعة، ومنها إلى مدينةِ **هَجَر** (وكانت **تُسَمّى الحَسَا** عندَ وُصولِ ابنِ بَطُّوطَـةَ إليها) وأهلُها عَرَبٌ، وانتقلَ منها إلى **(اليمامةِ)** وأكثرُ ساكنيها من بني حَنِيفَةَ، وفي صحبةِ أميرهم سافرَ ابنُ بَطُّوطَـةَ إلى مكةَ لِقَضاء **فريضةِ الحَجِّ للمرةِ الخامسة** عامَ ٧٣٢ هـ.

وبعدَ انتهاء مَوْسِمِ الحَجِّ **سافَرَ ابنُ بَطّوطَةَ إلى جُدَّةَ** ومنها إلى **(عَيْذابَ)** على ساحلِ البحرِ الأحمرِ، وحثَّ خُطا سَفَرِهِ في صَعيدِ مِصْرَ، **وغادرَ الديارَ المِصْرِيَّةَ إلى الشامِ** عن طريقِ بُلْبَيْسَ، واجتازَ الطريقَ مُروراً بأمَّهاتِ المُدُنِ الشاميَّةِ حتى وصلَ إلى **اللاّذِقِيَّةِ**، ومن مِينائها ركبَ البحرَ مُتَّجِهاً إلى **«برِّ التُركيَّةِ المعروفِ بِبلادِ الرُّومِ»** ليبدأَ مرحلةً جديدة من مراحلِ رحلتِهِ الطويلةِ.

المرحلة السابعة

ابنُ بَطّوطَةَ في بلادِ الرُّومِ وما جاوَرَها

كانَ العُثمانيونَ منذُ نِصْفِ قرنٍ قبلَ وُصولِ ابنِ بَطُّوطَةَ إلى بلادِهم جَادِّينَ في بِناء دَوْلَتِهم على أنقاضِ الدولةِ السَّلْجُوقِيَّةِ الرُّومِيَّةِ، وهم أتْراكٌ اسْتَوْلوا على جانبٍ كبيرٍ من بلادِ الرُّومِ، وجَعَلوا مدينةَ (قُونْيَةَ) عاصِمَةً لهم، فَخَلَفَهم العُثمانيون الذين كانَ القَدَرُ قد أعدَّهم لِنَشْرِ الاسلامِ والانطلاقِ بِفُتوحاتِهِ إلى القُسطنطينيةِ وما وَراءها.

نَزَلَ ابنُ بَطُّوطَةَ بعدَ إبْحارِهِ من اللاذِقيَّةِ في مِيناء (العَلاَيا) على الساحلِ الجنوبيِّ لآسية

الصُغرى، وبدأ **طوَافَهُ بِبلادِ الأَناضُولِ**، مُلاقياً من أهاليها التُرْكُمانِ كُلَّ حَفاوَةٍ وإكرامٍ، وقد لاحظ أن نساءهم لا يَحْتَجِبْن، وقد كُنَّ يُهْرَعْنَ إلى تَوديعِ الرَّحالةِ المَغْرِبيِّ وصَحْبِهِ، باكياتٍ لِرَحيلِهم مُتأَسِّفاتٍ، وكأَنَّ المسافرين من أَهلِهِنَّ وأقاربهنَّ.

كما لاحظ ابنُ بَطُّوطَةَ **انتشارَ جماعاتِ الفِتْيانِ (ويُسَمُّونَها الأَخِيّاتِ)** في سائرِ مُدُنِ الأَناضُولِ التركيةِ وقُراه، وكانتْ تَضُمُّ الشُبّانَ غيرَ المُتزوِّجينَ من أبناء المَدينةِ أو القَرْيَةِ الواحدةِ، فَيُقَدِّمُونَ رئيساً، ويتعاوَنونَ جميعاً على البِرِّ والتقوى وإكْرامِ الغُرَباء والإحسانِ إليهم، **وقد لقيَ ابنُ بَطُّوطَةَ من رِعايةِ هذه المُنَظَّماتِ ما يُفيضُ في وَصْفِهِ** خِلالَ رِحْلَتِهِ في تلكَ البلادِ، فقد كانَ الفِتْيانُ يَتسابَقونَ إلى استضافةِ الرحَّالةِ المغربيِّ المُسْلِمِ

ويَتنافَسُونَ في إكْرامِهِ وصَحْبِهِ أَشَدَّ الإِكْرامِ، وقد أثنى عليهم أعظَمَ الثناء وقال: «للهِ درُّهم من طائفةٍ! ما أكرمَ نُفُوسَهم وأشدَّ إيثارَهم، وأعظَمَ شَفَقَتُهم على الغريبِ، وألطفَهُم بالوَارِدِ، وأحبَّهم فيه، وأجملَهم احْتِفالاً بأمرِهِ، فليس قُدومُ الإنسانِ الغريبِ عليهم إلا كقُدومِهِ على أحَبِّ أهلِهِ إليه!».

وآخِرُ المُدُنِ التي زارَها ابنُ بَطُّوطَةَ في الأَناضُولِ كانتْ مدينةَ **(صنُوب) على البحرِ الأَسودِ**، وهي مدينةٌ مُحَصَّنَةٌ يُحيط بها البحرُ من جميعِ جِهاتِها إلا جهةَ الشَرقِ، ويَرْوي ابنُ بَطُّوطَةَ حادثةً طريفةً جَرَتْ له عندما صَلّى مع أصحابِهِ مُسْبِلِي الأيدي، على مَذْهَبِ الإمامِ مالكٍ، وكانَ أهلُ صنُوب أَحْنافاً فَظنُّوا ابنَ بَطُّوطَةَ ورفاقِهِ من الرَّوافِضِ، ولكنَّهم عندما أَكَلوا لحمَ الأرنَبِ تبَيَّنَ

أنهم لَيْسوا منهم؛ وقد أقامَ الرحّالَةُ المغربيُّ أربعينَ يوماً في هذه المدينةِ، في انتظارِ سفينَةٍ تُقِلُّهُ إلى **شِبْهِ جزيرة القَرْمِ**، ثم اكترى مَرْكباً للرُّومِ سافرَ عليه، وقد لَقِيَ الأَهوَالَ في رِحْلَتِهِ البَحريَةِ تلكَ حتى نزلَ ببلادٍ تابعةٍ لِلْمَغُولِ، وكان هؤلاء المَغُولُ بعدَ غَزْوِهم لِلعالم الإسلاميِّ والكوارث التي أَنْزَلُوها به، قد اعتَنَقوا الإسلامَ، وأصبَحُوا من غُلاةِ المُتَحمِّسينَ له، وراحَ ابنُ بَطُّوطَةَ يَتَنَقَّلُ في **بِلادِ المَغُولِ** على عَرَبةٍ يَجُرُّها فَرَسانِ أو تَجُرُّها الجِمالُ، وكانتِ الطرُقُ آمنةَ المَسالِكِ، إذْ كانَ المَغُولُ يَتَشدَّدُونَ في مُلاحقةِ السُرَّاقِ واللُّصوصِ، وقد حَظِيَ الرَحَّالةُ الكبيرُ بِمُقابلةِ **خَانِ المَغُولِ (سُلطانِهم) مُحمد أوزْبكْ**، وَوَصَفَهُ بقوله: «هذا السُّلطانُ عظيمُ المملكةِ، شديدُ القُوَّةِ، كبيرُ الشَّأنِ، رفيعُ المُكانِ،

قاهرٌ لأعداء الله - أهلِ قُسطنطينيةَ العُظمَى، مُجْتَهِدٌ في جِهادِهم، وبلادُه مُتَّسِعةٌ، ومُدُنُهُ عظيمةٌ: منها الكَفَا والقَرِمُ والماجَرُ وأَزاقُ وسُوداقُ وخُوارَزْمُ، وحَضْرَتُه (عاصِمتُه) السَّرا، وهو أحدُ الملوكِ السبعةِ الذين هم كُبَراء الدنيا وعُظماؤها)) وهم: سُلطانُ المغربِ، وسُلطانُ مِصْرَ والشامِ، وسُلطانُ العِراقِ، والسُّلطانُ أوزبك خانُ المَغُولِ، وسُلطانُ بلادِ تُرْكُستانَ وما وراء النهرِ، وسُلطانُ الهِنْدِ، وسُلطانُ الصِّينِ.

وشهِدَ ابنُ بَطُّوطَةَ احتفالاتِ السُّلطانِ بيومِ العيدِ ووصفَ مَوْكِبَهُ ومواكبَ نِسائِهِ الأميراتِ (الخَواتينِ والمُفْرَدُ خَاتون) وبعدَ انقضاء العيدِ راحَ يَتَنَقَّلُ مَعَ رَكْبِ السُّلطانِ حتى وَصَلوا إلى مدينةِ (الحاج تَرْخَانَ) — وتُسمى اسْتراخانَ —

وكانتْ إحدى زَوجاتِ الخانِ، وهي الخاتُونُ بَيلُونُ، ابنةَ ملكِ الرُّومِ، وقد حَظِيَ ابنُ بَطُّوطـَةَ بلقائها وعَطفِها عليهِ، فَسَأَلتْ زوجَها أَنْ يأذَنَ لها بزيارةِ أبيها في القُسطنطينيةِ، لِتَضَعَ حَمْلَها عندَهُ، وتَعُودَ إلى زوجها، فأذِنَ لها، وانتهَز ابنُ بَطُّوطَـةَ الفُرصَةَ السانحةَ، فسألَ الخانَ أن يَأذَنَ له في التَوَجُّهِ إلى القُسطنطينيةِ في صُحْبَةِ الخَاتُونِ، فتَرَدَّدَ في الإِذْنِ له، خوفاً عليه، ثُمَّ أَذِنَ له وزَوَّدَهُ بالمالِ والهَدايا والأفْراسِ الكثيرةِ، وهكذا أتيحَ لِلرَّحّالةِ الاسلاميِّ أن يَزورَ **القُسطنطينيةَ العُظمى**، وأن يستقبلَهُ مَلِكُ الرومِ في قصرِهِ، ويأمُرَ بإِكْرامِهِ، ويُيَسِّرَ له الطَّوافَ في العاصمةِ العظيمةِ ومشاهدةَ عجائبِها وغرائبِها، **ووصفَ ابنُ بَطُّوطـَةَ المدينةَ** فقالَ إنها «مُتناهيةٌ في الكِبَرِ، ومُنْقَسِمةٌ إلى قِسْمَيْنِ، بينهما نهرٌ عظيم المدّ

والجَزْرِ. وأحدُ القِسْمَيْنِ يُسمّى **أَصْطنْبُول**، وفيه سُكْنى السُّلطانِ وأربابِ دَولتِه وسائرِ الناسِ، **والكنيسةُ العظمى (أياصُوفيا)** في وَسطِ هذا القسمِ من المدينةِ، وأما القُسمُ الثاني من المدينةِ فيُسمّى **الغلَطَةَ**، وهذا القسمُ خاصٌ بنَصارى الافرنجِ يسكنونَه» وقد أطالَ ابنُ بَطّوطَةَ في وصفِ أسواقِ القُسطنطينيةِ وشوارِعها وكنيستِها العُظمى، وكانَ كُلُّ من يَلْقَاهُ يسألُهُ عن بَيْتِ المَقْدِسِ والمُقَدَّسات المسيحيةِ فيها، وبعد خَمسةِ أسابيعَ من الإقامةِ في القُسطنطينيةِ رَجَعَ الركبُ المُرافِق للخاتون إلى بِلادِهِ، ورَجَعَ مَعَهُ ابنُ بَطّوطَةَ، مُزوَّداً بهَدايا الخاتونِ الكثيرةِ، وقد آثَرَتِ البقاء في ديارِ أبيها؛ وبعدَ إقامةٍ قصيرةٍ في (السَّرا) عاصمةِ الخانِ، عَزَمَ ابنُ بَطّوطَةَ على السَّفرِ إلى **خُوارَزْمَ** ورَكِبَ

إليها العَرباتِ التي تجرُّها الجمالُ، في برِّيَةٍ **مُقْفِرَةٍ** قَطعَها في ثلاثينَ يوماً من السَّيْرِ الجَادِّ حتى بلغَ مدينةَ خُوارَزْمَ، ولقيَ أميرها، وهو ابنُ خالةِ السُّلطانِ محمد أوزبك خان، وقد وجَدَها مدينةً كُبْرى وعَدَّها «أكبرَ مُدُنِ الأتراكِ وأعظمَها وأجملَها وأضخَمَها» ووصفَ عمارتَها الكثيرةَ وازدحامَها بالسُّكانِ، حتى إنه لم يكُن يستطيعُ التنقُّلَ في بعضِ أسْواقِها، لِكَثْرةِ الازدحامِ. ومن خُوارزمَ رحلَ ابنُ بَطُّوطَةَ إلى **بُخارى**، وزار قبرَ الإمامِ البُخاري، ثم لَقِيَ سُلطانَ ما وراء النهرِ ــ **نَهْرِ** جَيْحون ــ وأقامَ في ضيافتِه قُرابةَ الشهرينِ، وهو من أحفادِ جِنْكيزخانْ، وسافرَ بعد ذلكَ إلى **سَمَرْقَنْدَ وتِرْمِذَ**، **واجتازَ نهرَ جَيحُون إلى بلادِ خُراسانَ**، فزار مُدُنَ **بَلْخٍ وهَراةَ وطوسَ ونَيْسابورَ وبِسطام** قبلَ أن يصِلَ إلى مدينتَيْ

(**غَزْنَة**) و (**كَابُلَ**) وقد كانتا من أعظمِ المُدُنِ، ولكنهما عندَ زيارةِ ابنِ بَطُّوطَةَ لهما كانتا خَربَتَيْنِ، ولم يَبْقَ منهما إلا اليسيرُ، ويسكُنُ (كابُلَ) طائفةٌ من الأَعجام يُقالُ لهم **الأَفغانُ**.

وفي بدايةِ عامِ ٧٣٤ هـ وصلَ ابنُ بَطُّوطَةَ إلى **وادي البُنْجابِ، وهو أولُ بلادِ السلطانِ محمد شاه ملكِ الهندِ والسندِ**، ليُتابعَ مرحلةً جديدة من مراحلِ رحلتِهِ الكبيرةِ في أقاصي المَعْمُورِ.

المرحلة الثامنة

ابنُ بَطـوطـَـةَ في الهـندِ وجُـزُرِ الهـنـدِ الـشرقيةِ والصينِ

كانتْ فُتوحاتُ محمود الغَزْنَوي قبلَ ثلاثةِ قُرونٍ في شمالي الهندِ قد وَطَّدَتِ الطريقَ لِتَمَكُّنِ الإسلامِ في تلكَ البِقاعِ، وغدا لِلمسلمين هناكَ إماراتٌ مُستقلةٌ، لم تَلْبَثْ أَنْ تَوَحَّدَتْ في ظِلِّ حُكّامِ مدينةِ (دهلي) وأصبحتْ هذه المدينةُ عاصمةً لجميعِ البلادِ التي سكنَها المُسلمون في شِمال الهندِ، وإليها كانَ يَقصِدُ ابنُ بَطُوطَةَ مُنذُ عُبورِهِ نهرَ البُنْجابِ، وعندما وصلَ إلى مدينة (**مُلْتَانَ**) سُئِلَ عن سببِ قُدومه، إذ

كانَ لا يسْمَح لأحدٍ من خراسانَ بدْخولِ الهندِ إلا لِمَنْ يَجيء لِلإقامةِ فيها، فأعلَنَ أنَّهُ «**قَدِمَ للإقامةِ في خِدْمةِ خَوَند عَالم: أيْ سيِّد العالِمِ**» والمُرادُ بذلك **سُلطانُ الهندِ محمدُ شاه**، وعندما وصلَ إلى **(دهْلي)** ــ وبينَها وبين مُلْتانَ مَسيرةُ أربعين يوماً ــ لم يكُنِ السلطانُ في عاصمتِهِ، فأدْخِلَ دارَ الضِّيافةِ، وبانتظارِ عودةِ السلطانِ تَجَوَّلَ ابنُ بَطُّوطَةَ في دهْلي وشَاهَدَ عِظَمَ مِساحتِها وعُمرانِها، وسُورَها الذي لا نَظيرَ له، وزار مسجدَها وهو من أعظمِ الآثارِ الإسلاميةِ فيها، وكانَ قبلَ ذلكَ معبداً وَثَنِيّاً فَحَوَّلوهُ إلى مسجدٍ، واسترعى نظرَه ارتفاعُ صَوْمَعَةِ المسجدِ (مِئْذَنَتُهُ) فَصَعِدَها فرأى إشْرافَها على مُعظم دُورِ المدينةِ وأسوارِها، وظَهَر لهُ الناسُ في أسفلِها كأنهم الصِّبيانُ الصِّغارُ مِن شِدَّةِ ارتفاعِها.

وعندما عادَ السلطانُ من سَفَرِهِ استقبلتْهُ (دهْلي) استقبالاً حافِلاً، فزُيِّنَتِ الفِيَلَةُ وَوُضِعَ عليها قِبابٌ من الخَشَبِ مَكسوة بالحَريرِ، وزُيِّنَتِ الشوارعُ التي يَمُرُّ فيها موكبُ السُّلطانِ العائدِ إلى قصرِه، وعند مُرورِه فيها كانَ أتباعُه يَرْمون مِنْ فَوْقِ الفِيَلَةِ بالدّنانيرِ والدّراهِمِ، فيَتَسابقُ الناسُ إلى التقاطِها. **وتَهَيّأَ ابنُ بَطّـوطَـةَ لِمُقابلةِ السُّلطانِ**، وكانتِ التقاليدُ أنَّ القادمينَ عليه يُقدّمونَ بين أيديهم هَديَّةً له، فيكافِئُهم عليها بأضْعَافٍ مُضاعَفَةٍ، وقد أصبحتْ هذه الهديةُ التقليديةُ مَوردَ رِزْقٍ للتُجّارِ ببلادِ السِّنْدِ والهِنْدِ، إذ يُقدّمونَ للقادمينَ قُروضاً يُجَهّزونَ بها هَداياهم، ثم يَردُّونَها من المُكافآتِ السَخيَّةِ السُلطانيةِ إليهم، فيربحُ التجارُ أرباحاً وَفيرة؛ وقد سلَكَ ابنُ بَطّـوطَـةَ مَسْلكَهم، **وأَعَدَّ هديةً مُناسِبةً**

لِلسُّلْطانِ من الجِمال والخَيْل والسُّيوفِ وبعضِ المَماليكِ، وحُدِّدَ له اليومُ الرابعُ من شَوّالٍ لِمُقابلتِه، وقد وَصَفَ الرَحّالةُ العظيمُ استقبالَ السلطانِ محمدِ شاه له في قصرِهِ الكبيرِ، وتَرْحيبَهُ به وقولَه له بالفارسيةِ «حلَّتِ البَرَكَةُ، قُدومُكَ مُبارَكٌ» وقد طلبَ منهُ أَنْ يَطمَئِنّ إلى الإقامةِ في الهِنْدِ، وَوَعَدَهُ بالعَطاء الجزيلِ بِقَوْلِهِ: «أعْطيكَ من الإِنْعامِ ما يَسْمَعُ بِهِ أَهلُ بَلَدِكَ فيأتونَ إِلَيْكَ!» وكانَ السلطانُ مُحِباً لِلغُرباء، حريصاً على الاستفادةِ من مَواهِبِهم وخِبْراتِهم في خِدْمةِ مملكتِهِ، فلم يَلْبَثْ أَنْ **عَيَّنَ ابنَ بَطّوطَةَ قاضياً على دَهْلي**، وخَصَّصَ له مُرَتَّباً سَنَوياً كبيراً، وقالَ لهُ: «لا تَحْسَبُ قَضاء دَهْلي من أصغرِ الأَشغالِ، فهو أكبرُ الأَشغال عِندَنا» فأجابَهُ: «يا مولانا أنا على مَذْهَبِ مالكٍ، وهؤلاء

حَنَفِيَّةٌ، وأنا لا أعرِفُ اللِّسانَ» فعَيَّنَ له السُّلطانُ بعضَ المُعاونينَ لِيُشاوِرُوهُ ويَنوبوا عنه، وزادَ في عَطاياهُ له والإنعامِ عليهِ.

وهَكذا اَطمأَنَّ ابنُ بَطُّوطَةَ إلى **الإقامةِ في الهندِ**، وهو يَصِفُ في رِحْلَتِهِ ما شاهَدَهُ هُناكَ من **عجائبِ العاداتِ والتقاليدِ**، ومن أَطرَفِ ما شاهَدَ هُناكَ **إحراقُ نساء الهُندوسِ أنفسَهنَّ بعدَ وفاةِ أزواجهنَّ**، **ولْنَدَع ابنَ بَطُّوطَةَ يروي ذلك بنفسِهِ**: «رأيتُ الناسَ يُهرَعونَ مِنْ عَسْكَرِنا، ومعهم بعضُ أصحابِنا، فسألتُهم: ما الخبرُ، فأخبروني أنَّ كافِراً من الهُنود ماتَ، وأُجِّجَتِ النارُ لإحراقِهِ، وامرأتُهُ تُحْرِقُ نفسَها مَعَهُ، ولمّا احتَرقا جاء أصحابي وأَخبَروا أنها عانَقَتِ الميِّتَ حتى احترقت معه! وبعدَ ذلك كُنْتُ في تلكَ البلادِ أرى المرأةَ من الهُنودِ

مُتزَيِّنةً راكِبةً والناسُ يَتْبَعونها، والأطبالُ والأ بواقُ بين يدَيها، ومَعَها البَراهِمةُ، وهم كُبَراء الهُنودِ، وإذا كانَ ذلك ببلادِ السُّلطانِ (السلطانِ المُسْلِمِ) استَأذَنوا السُّلطانَ في إحْراقِها، فيأذنُ لهم فيَحرقُونَها...».

ويَرْوي ابنُ بَطُّوطَةَ مشاهداتِه لإحْراقِ ثَلاثِ نِسْوَةٍ من الهُندوسِ أنفسَهن، بعد هَلاكِ أزواجِهنَّ في بعضِ المعَارِكِ: «فاتَّفَقْنَ على إحراقِ أنفسِهنَّ، وإحراقُ المرأةِ بعدَ زَوجِها عندَهم أمرٌ مَنْدوبٌ إليهِ (مُسْتَحَبٌّ) غيرُ واجبٍ، لكنَّ من أحْرَقتْ نفسَها بعد زَوجِها أحرَزَ أهلُ بيتِها شَرَفاً بذلكَ، ونُسِبوا إلى الوَفاء... ولمّا تَعاهدتِ النِسوةُ الثلاثُ على إحراقِ أنفُسِهنَّ أقمْنَ قبلَ ذلكَ ثلاثة أيامٍ في غِناء وطرَبٍ وأكلٍ وشُرْبٍ، كأنَّهنَّ يُودِّعنَ

الدُّنيا، وتأتي إليهِنَّ النساء من كُلِّ جِهَةٍ.. وفي صبيحةِ اليوم الرابعِ أتِيَتْ كلُّ واحدة منهنَّ بفَرَسٍ فركبتْهُ وهي مُتزيِّنةٌ مُتَعَطِّرَةٌ.. والبَراهمةُ يحُفُّونَ بها، وأقارِبُها معها... وكُلُّ إنسانٍ يقولُ لها: أبلِغي السلامَ أبي أو أخي أو أمِّي أو صاحبي، وهي تقولُ: نَعَمْ، وتَضحكُ لهم. وركبتُ مع أصحابي لأَرى كيفيةَ صُنعِهنَّ في الاحتراقِ، فسِرنا مَعَهنَّ نحوَ ثلاثةِ أميالٍ، وانتهينا إلى مَوضعٍ مُظلمٍ كثيرِ المياهِ والأَشجار، مُتكاثِف الظِّلالِ، وبين أشجارِهِ أربعُ قِبابٍ، في كُلّ قُبَّةٍ صَنَمٌ من الحِجارة، وبينَ القِباب صِهْريجُ مَاء قد تكاثَفَتْ عليه الظِلالُ... ولمّا وصَلْنَ إلى تلكَ القِبابِ نزلنَ إلى الصِّهريجِ، وانْغَمَسْنَ فيه، وجرَّدْنَ ما عليهنَّ من ثيابٍ وحُلِيٍّ فتَصَدَّقْن بهِ، وأُتيتْ كلُّ واحدةٍ منهن بِثَوْبِ قُطنٍ

خَشِنٍ غيرِ مَخيطٍ، فرُبط بَعْضُه على وَسَطِها، وبعضُه على رأسِها وكَتِفَيها، والنيرانُ قد أُضْرِمَتْ على قُرْبٍ من ذَلكَ الصِّهْريجِ، في مَوْضعٍ مُنخفضٍ، وصُبَّ عليها زَيْتُ السِّمْسِمِ فزادَ في اشتعالِها، وهُنالِكَ نحو خمسةَ عَشَرَ رجُلاً بأيديهم حُزَمٌ من الحَطبِ الرقيقِ، ومعهم نحوُ عَشرةٍ بأيديهم خَشَبٌ كِبَارٌ، وأهلُ الأَطبالِ والأَبواقِ وُقوفٌ ينتظرونَ مَجيءَ المرأةِ، وقد حُجِبَتِ النارُ بِملْحَفَةٍ يُمْسِكُها الرجالُ بأيديهم، لِئلاَّ يُدهِشَها النظرُ إليها (لكيلا تَرْتَعِبَ مِنْ رُؤيتها) فرأيتُ إحداهُنَّ لمّا وَصَلَتْ إلى تلك المِلحَفَةِ نزعَتها من أيدي الرِّجالِ بِعُنْفٍ وقالتْ لهم وهي تَضْحَكُ:

ـــ أَبالنَّارِ تُخوِّفونَني، أنا أَعلَمُ أنها نارٌ مُحْرِقَةٌ! ثم جَمَعَتْ يَدَيها على رأسِها خِدْمةً (صَلاة) لِلنَّارِ، ورَمَتْ بِنَفْسِها فيها، وعند ذلكَ ضُربَتِ الأَطبالُ

والأَنفَارُ والأَبواقُ، ورَمى الرِّجالُ ما بِأَيديهم من الحَطبِ عليها، لِئلاّ تتحرَّكَ، وارتفعتِ الأصواتُ، وكثُرَ الضَّجيجُ، **ولمّا رأيتُ ذلكَ كِدْتُ أَسقُط عَنْ فَرَسي**، لولا أَصحابي الذينَ تَداركوني بالماء، فَغَسَلوا وجهي، وانصرفتُ».

ومرَّت قُرابَةُ تِسْعِ سَنواتٍ على إقامةِ ابنِ بَطُّوطَةَ في الهِنْدِ، في خِدْمَةِ سُلطانِها، **حتى ساءتِ العلاقاتُ بينَهما يوماً، لِزيارةِ بَطُّوطَةَ لِلشّيخِ شِهابِ الدينِ، فلمّا غَضِبَ السلطانُ على الشيخِ وقَتَلَهُ، هَمَّ بِعقابِ ابنِ بَطُّوطَةَ، وكانَ السُّلطانُ معَ كَرَمِهِ وحُبِّهِ لِلغُرباء شَديدَ البطشِ والفتكِ والولوغِ في الدِّماء، فخافَ ابنُ بَطُّوطَةَ على نفسِه**، وانقبضَ عن الخِدْمةِ السُلطانيةِ، **وتَصوَّفَ واعتكَفَ** في بعضِ الزوايا، وراحَ يُوالي العِبادةَ

والصومَ و وتصدَّقَ بأكثرِ ما كان يَملِكُ، ولَبسَ زيَّ الفُقراء (الصُّوفيةِ)، فلما عَرَفَ السلطانُ ما آلَ إليهِ أمرُه استدْعاهُ، ولاطفَهُ، وطلَبَ منه الرُجوعَ إلى الخِدمةِ، فاعتذَرَ وسأَلَهُ أَنْ يأذَنَ له بالحجِّ، فأذِنَ لهُ، وتابعَ ابنُ بَطُّوطَةَ اعتكافَهُ في أواخرِ جُمادي الثانيةِ عامَ ٧٤٢ هـ في بعضِ الزوايا مُدّةَ أربعينَ يوماً، كانَ يقرأ القُرآنَ خِلالَها كُلَّ يومٍ، وَيتَهَجَّدُ ويَتَعَبَّدُ ويكْتَفي بالقَليلِ من الطعامِ، ثُم أَرسلَ إليه السلطانُ يستدعيهِ، وبَعَثَ إليه «خَيْلاً مُسْرَجةً، وجواري وغلْماناً وثياباً ونَفَقَةً»، فلما مَثُلَ بينَ يَدَيْهِ زَادَ في إكْرامِهِ وأَعلَمَهُ بأنَّه **اختارَهُ لِما يَعْلَمُ من حُبِّهِ لِلأَسْفارِ والتَّرْحالِ، لِيَكونَ رَسُولاً عنه إلى مَلِكِ الصِّينِ**، معَ وَفْدٍ من رِجالِهِ يَحْمِلونَ منهُ هَديةً إلى (القَانِ) رَدّاً على هَديَّةٍ كانَ بَعَثَ بها إلى السُّلطانِ

محمد شاه معَ وفدٍ صينيٍّ كبيرٍ، وكانتْ فُرصةً ذهبيةً لِيَزورَ ابنُ بَطّوطَةَ بلادَ الصينِ، فَرَحَّبَ بها، وتَحرَّكَ رَكْبُ السَّفَرِ في ١٧ صفر ٧٤٣ هـ من دَهْلي، وقد انضمَّ إليه الوفدُ الصينيُّ العائدُ إلى بلادِهِ.

إلا أن **طريقَ ابنِ بَطّوطَةَ إلى الصِّينِ تَمْتَدُّ طويلاً، بعدَ تنقُّلٍ في شِبْهِ جَزيرةِ الهِنْدِ، وجُزُرِ ذِيْبَةِ المَهْلِ (المالْديف) وسِيْلانَ وجَاوَةَ، قبلَ أن يُبْحِرَ إلى الصينِ**، وهو يَصِفُ في رِحْلَتِهِ حياةَ السُكّانِ في هذه الجُزُرِ وَصْفاً مُفصَّلاً فيه مادَّةٌ غَزيرَةٌ وطريفةٌ.

فأما **جُزر ذِيبَةِ المَهْلِ** (المَالْديف حالياً) فهي إحدى عجائبِ الدنيا، كما يقولُ، **وهي نحوُ أَلفَيْ جزيرةٍ صغيرةٍ، وأهلُها كُلُّهم مسلمونَ**، يعيشون في صَلاحٍ وتُقىً وهُدوءٍ، والزَّواج من نسائِهم

سَهْلٌ مَيْسُورٌ، وقد أقامَ ابنُ بَطُّوطَةَ في هذه الجُزُرِ عاماً ونصفَ العامِ، وتزوَّجَ ابنةَ أحدِ الوزَراء فيها، وحَمَلَهُ الوزيرُ على تَقَلُّدِ مَنْصِبِ القَضاء رَغْبةً في الاستفادةِ من فِقْهِهِ وعِلمِهِ، فأُتيحَ له بذلك أن يَنْهَضَ بعددٍ من الإصلاحاتِ الاجتماعيةِ في تلكَ الجُزُرِ.

ثم رحلَ منها إلى **جزيرةِ (سيْلان)** وصعِدَ فيها **جَبَلَ (سَرَنْديبَ)** لِيَرى مَوْطِىء قَدَمِ أبي البَشَرِ آدمَ عندَ هُبوطِهِ من السَّماء، فيما يَقُولونَ، وقد استَرْعى نَظَرَهُ في هذه الجزيرةِ أمرانِ: **كثرةُ القُرود** فيها، **وكثرةُ أحجارِ الياقُوتِ** المُلوَّنِ، وقد شاهدَ بنفسِهِ أحجاراً كبيرة من الياقوتِ، في حَجْمِ الكفِّ، مَوْضُوعةً في خَزائِنِ سُلْطانِها.

وأخيراً سافَرَ ابنُ بَطُّوطَةَ إلى **جزيرةِ جاوَةَ**،

وعندما رآها على مسيرةِ نصفِ يومٍ إليها من البحرِ أعْجَبَتْهُ بِخُضْرَتِها ونَضْرتِها وكثرةِ شَجرِها، ثم نزلَ فيها واتّجه إلى **عاصمةِ سُلطانِها (سُومُطرةَ)** وهي مَدينةٌ حَسَنةٌ عليها سُورٌ وأبراجٌ من خَشَبٍ، وأقامَ في ضيافةِ السلطانِ خمسةَ عَشَرَ يوماً، وبِعَوْنٍ منه سافرَ ابنُ بَطّوطةَ إلى الصينِ في مركبٍ جَهَّزَهُ له وزَوَّدَهُ بِكُلِّ ما يَلْزَمُ الرحّالةَ العظيمَ في إبحارِهِ إلى آخرِ بلادِ العالمِ الإسلاميِّ في الشرقِ.

كانتِ الصينُ في نَظر المُسلمين تُمثِّلُ أقصى الأرضِ المَعْمُورةِ، ولكن التجارَ المُسلمينَ كانوا يَصِلونَ إلى مَوانِئها، وفي القرنِ الهجريِّ الثاني استنْجَدَ حاكمُ الصِّينِ بالخليفةِ المنصورِ العبّاسيِّ للقضاء على بعضِ الثُّوّارِ فأَمَدَّهُ بِفِرْقَةٍ من الجُندِ الإسلاميِّ، وقد آثَرَ أفرادُها البقاء في الصِّينِ بعدَ

انتهاء مُهمتِهم العسكريةِ، غيرَ أنَّ صِلَةَ المُسلمينَ بالصينِ ازدادتْ تَوَثُّقاً قُبَيْلَ زيارةِ ابنِ بَطُّوطَـةَ لها، **في القَرنِ السابِعِ الهجريِّ دخلَ المَغولُ تلكَ البلادَ، وتحوَّلوا إلى الدينِ الإسلاميِّ، فَفَتَحوا الطريقَ بذلكَ للمسلمينَ لِلدُّخولِ إلى الصينِ،** وأصبحتْ جالياتٌ كثيرة منهم تَقْطنُ في مُدُنِ الصينِ الهامَّةِ، وغدا لهم كيانُهم الخاصُّ، وقد وصَفَ ابنُ بَطُّوطَـةَ حياةَ هذهِ الجالياتِ الإسلاميةِ عندما زارَ الصِّينَ وطافَ في بعضِ أنحائِها.

وجدَ ابنُ بَطُّوطَـةَ «اقليمَ الصينِ مُتَّسِعاً، كثيرَ الخيراتِ والفواكهِ والزَّرْعِ والذَّهَبِ والفِضَّةِ، لا يُضاهِيه في ذلكَ إقليمٌ من أقاليمِ الأَرْضِ» كما وجدَ المَرْسى الذي رَسَتْ فيه سَفينتُهُ عندَ مدينةِ **(الزَّيْتُونِ) «من أعظمِ مَراسي الدُّنيا، أو هو**

أعظمُها» واتَّصلَ رَحّالتُنا بالمسلمينَ في هذه المدينةِ فقدَّمُوه إلى سُلْطانِها التي أكرمتْ وِفادَتَهُ وأنزلتهُ في منزلٍ حَسَنٍ، وكانَ فَرَحُ الجاليةِ الإسلاميةِ في المدينةِ بهِ عظيماً، وكانَ التُجّارُ المُسلمونَ هُناكَ «إذا قَدِمَ عليهم المسلمُ فَرِحُوا به أشَدَّ الفَرَحِ، وقالوا: جاء مِن أرضِ الإسلامِ، وله يُعْطونَ زَكَواتِ أموالِهم، فَيَعُودُ غنياً كواحدٍ منهم» ثم طافَ ابنُ بَطّوطَةَ في الصينِ، **ورأى في كُلِّ مدينةٍ يزورُها حَيّاً خاصّاً بالمُسلمينَ**، لهم فيهِ مَساجِدُهم ومَرافِقُهم، وهم مُعظَّمونَ ومُحترَمُونَ. وقد استَرعى انتباهَهُ نَفَاسَةُ **الفُخّارِ الصينيّ، وضخامةُ الدَّجاجِ في الصينِ، وكثرةُ الحريرِ** فيها حتى لَيُباعُ الثوبُ الواحدُ من القُطنِ بالأثوابِ الكثيرةِ من الحريرِ! كما أشَارَ إلى **استعمالِ أهلِ الصِّينِ لِلأوراقِ النَّقْديَّةِ بَدَلاً من**

العُمْلَةِ الفِضِّيَةِ أو الذَّهَبيةِ، فإذا تمزَّقَتْ تلكَ الأوراقُ في يدِ أحدِهم حَمَلَها إلى دارِ السِكَّةِ فأخذَ عِوَضاً عنها أوراقاً جُدُداً، ولا يَدْفعُ على ذلكَ أَجراً، لأنَّ الذينَ يَتَوَلَّونَ هذا العملَ لهم المُرَتَّباتُ من قِبَلِ السُّلطانِ.

على أَنَّ أشدَّ ما أَعجَبَ ابنَ بَطُّوطَـةَ في الصينِ **براعةُ أهلِها في التَّصويرِ** «فلا يُجاريهم أحدٌ في إحكامِهِ من الرُّومِ ولا من سِواهم، فإنَّ لهم فيه اقْتداراً عظيماً» وهو يقولُ: «ومن عجيبِ ما شاهَدْتُ لهم من ذلكَ أني ما دَخَلتُ قَط مدينةً من مُدُنِهم ثُم عُدْتُ إليها إلاّ **ورأيتُ صُورَتي وصُورَ أصحابي مَنقُوشةً في الحِيطانِ والكَواغِدِ** (الأَوراقِ)، موضوعةً في الأَسواقِ».

وبعدَ وصُولِ ابنِ بَطُّوطَـةَ إلى الصينِ بأيامٍ جاء

أمرُ السلطانِ (القَانِ) بإكْرامِهِ وإشْخاصِهِ إلى حَضْرَتِهِ، فَجَهَّزوا لهُ مركباً حَسَناً من مَراكِبِ الأُمراء، سارَ في النهرِ أيّاماً حتى وَصَلَ إلى (الخَنْسا) وهي كما يَقُولُ «**أكبرُ مدينةٍ رأيتُها على وجهِ الأرضِ.. وهي سِتُّ مُدُنٍ، على كُلِّ مدينةٍ سُورٌ، ويُحدِقُ بالجميعِ سُورٌ واحدٌ**» ثم تابعَ الرِّحلَةَ إلى مدينةِ (خَان بَالِق) ـ وهي بكينُ اليومَ ـ عاصِمَةُ القانِ، والقانُ هو سُلطانُ الصين الأعظمُ، الذي مملكتُه بلادُ الصين والخِطا، وقَدْ وجَدَها رَحّالتُنا «من أعظمِ مُدُنِ الدُّنيا» وقَصْرُ القانِ فيها في وسطِ المدينةِ، وأكثرُ عِمارَتِهِ بالخَشَبِ المَنْقُوشِ، غيرَ أنَّ القانَ كانَ غائباً عن عاصمتِهِ عندَ وُصُولِ ابنِ بَطُّوطةَ إليها، لأنّه كانَ قد خَرَجَ بجيشِهِ لِقتالِ ابنِ عمِّهِ فَيْروزَ الثائرَ عليهِ، وبعد أيامٍ

من وُصولِ ابنِ بَطُّوطَةَ وَردَ الخبرُ بمَصْرَعِهِ، فأُعلِنَ الحِدادُ وعمَّ الحُزْنُ، ونُصِحَ الرَّحالةُ بِمُغادَرَةِ إقليمِ الخِطا قبلَ أن تَشْتَدَّ الفِتْنَةُ، فعادَ بِمركبِهِ من الطريقِ التي جاء فيها، إلى مدينةِ الزَّيْتُونِ، على عَجَلٍ، حيثُ كانتْ سُفُنٌ فيها تَهُمُّ بِمُغادَرَتِها إلى الهِنْدِ، وفيها سَفينةٌ لِسُلطانِ جَاوةَ، ورُكّابُها من المُسلمين، فَرَحَّبوا بابنِ بَطُّوطَةَ، وسافَرَ معَهم، ولكنَّ السفينةَ تاهَتْ في البحار قبلَ أن تَصِلَ إلى **جاوةَ**، وقد رَحَّبَ سلطانُها بعودةِ الرحَّالةِ العظيمِ إلى بلادِهِ، فأقامَ في ضيافتهِ شهرينِ قبلَ أَنْ يُوَدِّعَهُ عائداً إلى الهندِ، وعندَ وُصولِهِ إلى (**كَوْلَمَ**) رحلَ منها إلى (**قَالِقُوط**) ومن مِينائها ركبَ البحرَ إلى الخليجِ العربيِّ، فوَصَلَ إلى (**ظفارِ**) في المُحرَّمِ عامَ ٧٤٨ هـ وتابعَ رِحْلتَهُ في **إقليمِ هُرْمُزَ**، وكانتْ مَحسوبةً من

بلادِ عُمانَ، حتى وصلَ إلى **شِيرازَ**، مُتابعاً سفرَهُ في **مُدُنِ فارِسَ** قبلَ أن يَصِلَ إلى **البصرةِ فَبَغْدادَ** التي وصَلَ إليها في شَوَّالٍ من ذلكَ العامِ، ثم تابعَ طِريقَهُ على الفُراتِ إلى **رَحْبَةِ مالكِ بنِ طوقٍ**، ومنها سافَرَ إلى **تَدْمُرَ**، **فَدِمَشْقَ**، **التي وصلَ إليها بعد مَغيبِهِ عنها عِشرينَ سنةً كاملةً** كما يقولُ.

المرحلة التاسعة

عودةُ ابنِ بَطّوطَةَ إلى المَغرِبِ والأَندَلُسِ

كانَ ابنُ بَطّوطَةَ عامَ ٧٤٩ هـ ما يزالُ في ديارِ الشامِ عندما **وَقَعَ الوَباء**، وسمعَ الرَّحّالةُ بأَخبارِهِ وهو في **حَلَب**، فغادَرَها على نِيَّةِ العودةِ إلي وطنِهِ، وعندما وَصَلَ إلى **دمشقَ** كانَ عددُ المَوْتى من الوَباء قد انتهى إلى ٢٤٠٠ في اليوم الواحدِ، وتابعَ سَفَرَهُ إلى **بَيْتِ المَقْدِسِ**، وكانَ الوباء قد ارتفعَ عنها، وبوُصولِهِ إلى **غَزَّةَ** التي بَدأَ الوباء منها، وَجَدَ ابنُ بَطّوطَةَ المدينةَ خاليةً من مُعْظَمِ أهلِها، لِكَثْرَةِ مَنْ ماتَ منهم في الوباء (فكان ١١٠٠ من أهلِها يَموتون في اليوم).

وتابعَ ابنُ بَطُّوطَةَ طريقَهُ إلى **الاسكندرية فالقاهرة**، ليجدَ جميعَ مَنْ كانَ يَعْرِفُهم من مشايخِها قد ماتوا في الوَباء!

وتابعَ الطريقَ إلى **الصَّعيدِ**، ومن **(عَيْذاب)** ركبَ البَحْرَ إلى **جُدَّةَ**، ومنها إلى **مكةَ المُكرَّمةِ** فوصلَ إليها في ٢٢ من شعبانَ عامَ ٧٤٩ هـ، وبقيَ فيها حتى الموسمِ فأدّى فريضةَ الحجِّ قبلَ أن يَعودَ إلى **القاهرةِ** من جديدٍ.

وهنا، وبعدَ رُبْعِ قَرْنٍ من التَجْوالِ الدائبِ والطَّوافِ في الأَرضِ، أحسَّ الرَحّالةُ البعيدُ الهِمَّةِ بالحنينِ إلى وطنِهِ ومَسْقَطِ رأسِهِ، وقد بَلَغَهُ أَنَّ السُّلطانَ المَرينيَّ أبا عِنانٍ في المغربِ الأَقصى قد فاضَ إحسانُه على الخاصِّ والعامِّ، **فعزَمَ على العودةِ إلى بلادِهِ**، فركبَ البحرَ في صَفَرٍ من عامِ ٧٥٠ هـ

إلى مدينةِ **تُونُسَ**، حيثُ نزلَ في ضيافةِ سُلطانها أبي الحسنِ من بَني عبدِ الحَقِّ أكثرَ من شَهْرٍ، قبلَ أن يُتابعَ رِحْلتَهُ البحريةَ إلى **تِلِمْسانَ**، ومنها سَلَكَ طريقَ البَرِّ عن طريق **(تَازا)** إلى مدينةِ **فاسٍ**، عاصمةِ بني مَرينٍ، فوصلَ إليها في أواخرِ شَعبانَ، حيثُ نعِمَ بإحسانِ السُّلطانِ أبي عِنانٍ وإكرامِهِ، إذ استقبلَهُ أحسَنَ استقبالٍ وأغرَقَهُ بالعَطايا، مِمّا أطلَقَ لِسانَهُ بالثَّناء عليهِ، وتمجيدِ فضائِلِه وتَعْدادِ مَزاياهُ؛ ثم أَذِنَ له بالسَّفَرِ إلى مَسْقطِ رأسِهِ، فزارَ **(طَنْجَةَ)** وقَبْرَ والدتِهِ فيها، ثم تَوَجَّهَ منها إلى **(سَبْتَةَ)** وعَبَرَ البحْرَ منها إلى **الأَنْدَلُسِ**، ولم تَطُلْ زيارتُه لها، فقد كانَ ما تَبَقّىٰ لِلمُسلمينَ من البلادِ فيها جُزءاً يَسيراً: وقد نزلَ ابنُ بَطُّوطَةَ في جبلِ الفَتْحِ **(جبلِ طارِقٍ)** وانتقلَ إلى **(رُنْدَةَ)** وكانتْ يومَذاكَ من أَمنَعِ مَعاقِلِ

المُسلمينَ، ورحلَ منها إلى **(مالَقَةَ)** وشاهدَ مسجدَها فوجدَهُ «كبيرَ الساحةِ، شهيرَ البَرَكةِ، وصحنُهُ لا نظيرَ لهُ في الحُسْنِ» ثم انتهى إلى **(غِرْناطَةَ)** وكانتْ يومَذاكَ عاصمةَ بني الأحمرِ، آخرِ الدُّوَيلاتِ الإسلاميةِ في الأَندَلُسِ، ولم يتمكَّنِ الرحَّالةُ الكبيرُ من لِقاء سُلطانِها أبي الحجَّاجِ يُوسُفَ، لِمَرضٍ ألَمَّ بهِ، ولَقِيَ جُمْلةً من فُقَهاء غِرناطةَ وعُلَمائِها، وحدَّثَهم باخبارِ رِحْلَتِهِ الطويلةِ، فأنِسُوا بها، قبلَ أَنْ يُغادِرَ عاصمةَ بني الأحمرِ **عائداً إلى المَغْرِبِ**، لِيَتَنَقَّلَ في مُدُنِهِ: **مَرّاكُشَ ومِكْنَاسةَ وغيرِهما، في رِكابِ السُّلطانِ المَرينيِّ العائِدِ إلى عاصمتِهِ في فاسٍ.**

ولكنَّ إقامةَ الرحَّالةِ في فاسٍ لم تَطلْ هذه المرةَ أيضاً، فقد عاوَدَهُ الحنينُ إلى الرحيلِ، فَعَزَمَ

على السفرِ إلى بلادِ السُّودانِ، وَوَدَّعَ السُّلطانَ المَرينيَّ لِيَقومَ برحلتِهِ الأخيرةِ، في نهايةِ مَطا الطَّويلِ.

نهايةُ المطافِ

ابنُ بَطّوطَةَ في السُّودانِ

كانتْ نهايةُ مَطافِ جَوّابِ الآفاقِ ابنِ بَطّوطَةَ في رِحْلَتِهِ إلى **السُّودان الغَرْبيِّ** وتنقُّلِهِ خِلالَ أَقَلَّ من سنتَيْنِ في **المُدُنِ التي وَصَلَ إليها الإسلامُ**، عن طريقِ القَوافلِ التجاريةِ التي كانتْ تَقْطعُ إليها الصحراء الكُبرى بينَها وبينَ المَغرِب، وفي القرنِ الخامسِ الهجريّ، وفي عَهْدِ يوسُفَ بنِ تاشَفِين، أَحَدِ أمَراء دولةِ المُرابطينَ ازدادتِ الصِّلَةُ بينَ المَغْرِب وتلكَ البلادِ، وأصبحَ سُكّانُها يدخلونَ في دينِ اللهِ أفواجاً، ونَشأتْ مُدُن جديدة لم تلبَثْ أنْ غَدَتْ

مراكزَ لِتَعْليمِ الإسلامِ يَتَوافَدُ عليها الطلبةُ وعُلماء الدينِ، **مثلَ مدينةِ (تُمبكْتُو) التي زارَها ابنُ بَطُّوطَةَ وَوَصَفَها ورَكِبَ منها في نهرِ النَّيْجِرِ** الذي يَبْعُدُ أربعةَ أميالٍ عنها، وقدِ الْتَبَس على رَحَّالتِنا الأمرُ، **فَظنَّهُ نهرَ النِّيلِ، لِاقْتِرابِ** بحرِ الغزَالِ، وهو أحدُ فُروعِ النيلِ، مِن نَهْرِ النَّيْجِرِ، وقد ظلَّ الناسُ على هذا الوَهْمِ إلى أواخرِ القَرْنِ الثاني عَشَر الهجريِّ، حينَ تَمَّ اكتشافُ مَنابعِ النيلِ الحقيقيةِ.

غادرَ ابنُ بَطُّوطَةَ مدينةَ **فاسٍ إلى سَجَلْماسَةَ «التي تُشْبِهُ مَدينةَ البصرةِ في كَثْرةِ تَمْرِها»** وتَهَيّأَ فيها لِقَطعِ الصَّحْراء، ثم سافرَ منها في أوَّلِ يومٍ من عامِ ٧٥٣ في رِفْقَةِ بعضِ القوافلِ التجاريةِ، فوصلَ بعد خمسَةٍ وعشرينَ يوماً إلى **(تَغَازا)** وهي قريةٌ **«بُيوتُها ومسجدُها من حجارةِ المِلْحِ، وسُقوفُها**

من **جُلودِ الجِمال»** ثُمَّ تابعَ الرِّحْلةَ إلى مدينةِ **(أيوالاتنْ) أولى مُدُن السُّودانِ**، فدَخَلها بعد شهرَيْنِ كاملَيْنِ من خُروجِهِ من سَجَلْماسَةَ، ونزلَ في ضيافةِ أهلِها مُدّةَ خمسينَ يوماً، وقد استدعى نَظرَهُ أنَّ نساءها جميلاتٌ فائقاتُ الجمالِ، وأنَّ الرجالَ فيها لا غَيْرَةَ لديهم على نسائِهِم، وهُنَّ لا يَحْتَشِمْنَ من الرِّجالِ ولا يَحْتَجِبْنَ، مع أنّهنُ مُسْلِماتٌ مُواظِباتٌ على صَلواتِهِنَّ، ومِمَّا أثارَ استغرابَ ابنِ بَطُّوطَةَ أنَّ الرجلَ هُناكَ ينتسبُ إلى خالِهِ لا إلى أبيهِ، وأنَّ الإرْثَ يكونُ لأبناء الأُختِ دونَ البَنينَ، وذلكَ شَيء ما رآهُ في طَوَافِهِ في الدنيا إلا في بَعْضِ بلادِ كُفّارِ الهِنْدِ! فأمّا هؤلاء فهم مُسْلِمون مُحافظون على الصَّلواتِ وتَعَلُّمِ الفِقْهِ وحفْظِ القُرآنِ الكريمِ!

ثُمَّ اتَّجهَ ابنُ بَطُّوطَةَ إلى مدينةِ **(مَالي) أكبرِ**

مُدُنِ السُّودانِ وأعظمِها شأناً، وبينهَا وبينَ (أيوالاتن) مسيرةُ أربعةٍ وعشرينَ يوماً، وهي **عاصمةُ مِلكِ السُّودانِ،** فَوَصَلَ إليها في الرابعَ عَشَرَ من جمادى الأولى، وأقامَ في بيتٍ اكْتَرَاهُ فيها، وشَهِدَ عيدَي الفِطرِ والأَضحى، ولم يُغادِرْها إلا في الثاني والعشرينَ من مُحَرّمِ عامِ ٧٥٤ هـ وكان في المدينةِ **جَالِيَةٌ كبيرة من أهلِ المغربِ ومِصْرَ، تُقيمُ في حَيٍّ خاصٍّ بها،** وقد لَقِيَ رحَّالَتُنا الكبيرُ منها كُلَّ احتفالٍ وتكريمٍ، أما سلطانُ مالي فلَمْ يَلْقَ ابنُ بَطُّوطَةَ من إكْرامِهِ الشَيءِ اللائقَ إلا بعدَ أَنْ تَصَدَّى له في بعضِ مَجالِسِه، بِمُناسبةِ شَهْرِ رَمضانَ، وقالَ له: «إني سَافَرْتُ في بلادِ الدُّنيا، ولَقِيتُ مُلوكَها، ولي بِبلادِكَ أربعةُ أشْهُرٍ، ولم تُضِفْني ولا أعطيْتَني شَيْئاً، فماذا أقولُ عنكَ عندَ السَّلاطينِ؟».

وَوَصْفُ ابنِ بَطُّوطَـةَ لِمملكة مالي وعاداتِ أهلِها في معاشِهم وأَعيادِهم وحياتِهم الاجتماعيةِ طريفٌ حَقّاً، ومِنْ خِلالِهِ نرى سُكّانَ مالي على حظٍّ وافرٍ من الذّكاء وحذْقِ الصناعاتِ والشُّهْرَةِ بالأمانةِ، والحِرْصِ على نشرِ الإسلامِ؛ ويُعدِّدُ رَحّالتُنا مزاياهم ومساوِئَهم، مِمّا يَدُلُّ على دراستِهِ لأحوالِهم بِعَيْنِ الفاحصِ الخبيرِ المُنْصِفِ، الحريصِ على ذِكْرِ ما لَهم وما عَليهم.

ثم غادرَ ابنُ بَطُّوطَـةَ مدينةَ مالي قاصِداً (تُمْبُكْتُو) فلما وصلَ مع رفاقِهِ إلى شاطىء نهرِ النَّيْجرِ شاهَدَ عَدَداً من أَفراسِ البَحْرِ، وقد ظنَّها في بادِىء الأمرِ فِيَلَةً، فَوَصَفَها بِقَوْلِهِ: وهي أغلَظ من الخَيْلِ، ولها أعرافٌ وأذنابٌ، ورُؤوسُها كَرُؤوس الخَيْلِ، وأَرجُلُها كأَرجُلِ الفِيَلَةِ، وَوَصَفَ طريقة

اصطيادِ النَّاسِ لها، لِيَذْبَحوها ويَأْكُلوا لَحْمَها، وقد كانتْ عِظامُها مُنْتَشِرَة على طولِ الشّاطىء هُناكَ.

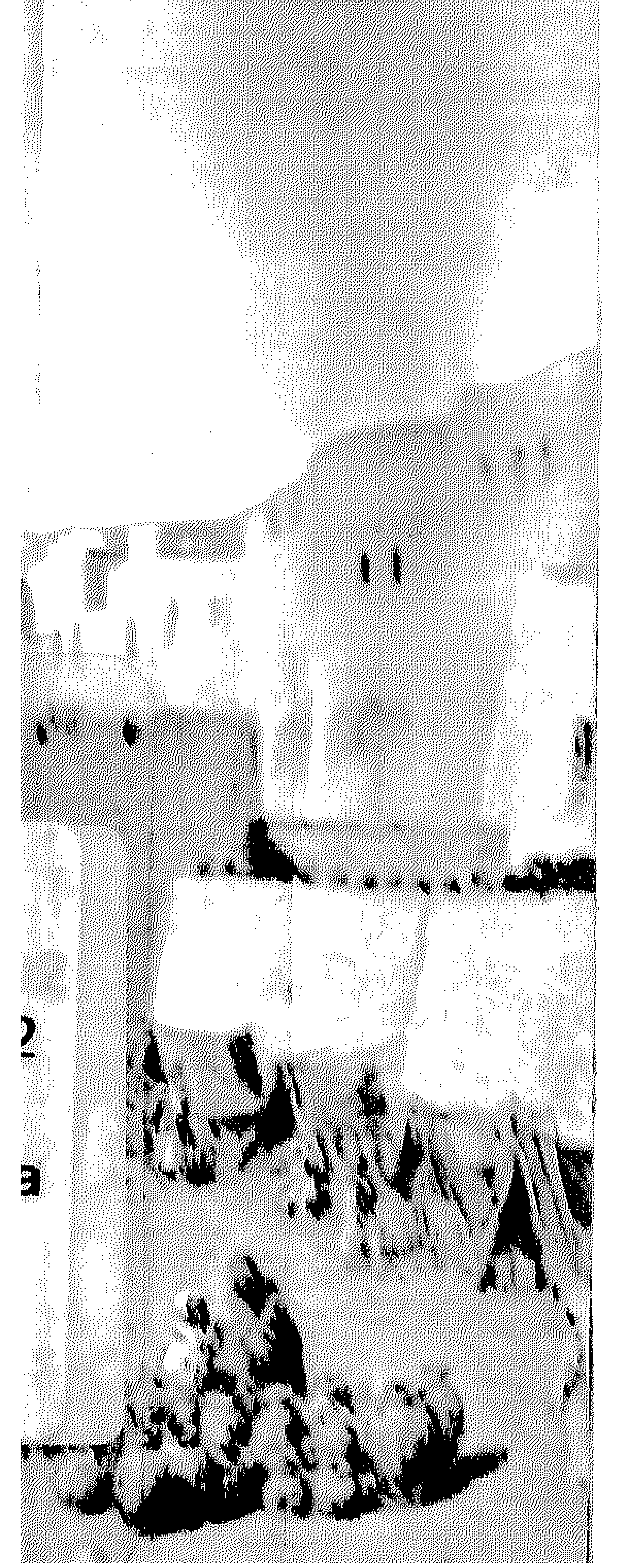
وفي مدينةِ (تُمْبُكْتُو) رأى أَهلَها يَضَعون اللِّثامَ على أَفواهِهِم، ومِنْها **رَكِبَ نَهرَ النَّيْجِرِ إلى مَدنيةِ (كَوْكَوْ)** وهي من أَحسَنِ مُدُنِ السُّودانِ وأَخصَبِها، فأقامَ فيها شهراً، ثم سافرَ منها إلى **(تَكَدّا)** في البرِّ برِفْقَةِ إحدى القَوافِلِ، وهي مركزٌ تِجاريٌّ يتعاطى أَهلُها التجارةَ مع مِصْرَ، ويتفاخَرون بكَثْرةِ عَبيدِهِم وجَواريهم، وفيما كانَ ابنُ بَطُّوطَةَ في هذهِ المدينةِ **تَلَقّى أمراً من السُّلطانِ المَرينيِّ أبي عِنانٍ بالعودةِ إلى فاسٍ، فعادَ إلى المَغْرِبِ**، ووصلَ إلى العاصمةِ المَرينيَّةِ بُعَيْدَ عيدِ الأضحى من عامِ ٧٥٤ هـ، وراح يُمْلي على كاتبِ السُّلطانِ أَحداثَ رِحْلاتِهِ، في مراحِلها الطويلةِ التي استمرّتْ ثمانيةً

وعشرينَ عاماً ، وقَطعَ خلالَها نَحْواً من مائةٍ وعشرينَ ألفاً من الكيلومتراتِ ، وقدْ فَرَغ الكاتبُ من تَسْجيلها في صَفَرِ عامِ ٧٥٧ هـ.

وبقيَ ابنُ بَطُّوطَةَ بعدَها يَنْعَمُ بِرعَايةِ السُّلطانِ لهُ وتكريمِهِ إيّاهُ، خِلالَ العَقْدِ الأخيرِ من شَيْخوخَتِهِ، إلى أنْ لَقِيَ ربَّه عامَ ٧٧٠ هـ، وقد ضَمِنَتْ لهُ رِحْلَتُه العظيمةُ الشهرةَ والمجدَ والخُلودَ في زُمْرةِ المُبَرِّزينَ الخَالدينَ من الأعلامِ في الشرقِ والغربِ.

المحتوى

سلسلة في عشرة كتب تعرّف بسيرة موجزة
لأعلام مبرّزين من الشرق والغرب



سلسلة صغيرة تغنيك
عن مكتبة كبيرة

دار الشرق العربي
بيروت ـ شارع سورية بناية درويش
ص.ب: (٦٩١٨ ـ ١١)